أنتونيو موريسكو

الضوء الخافت

رواية

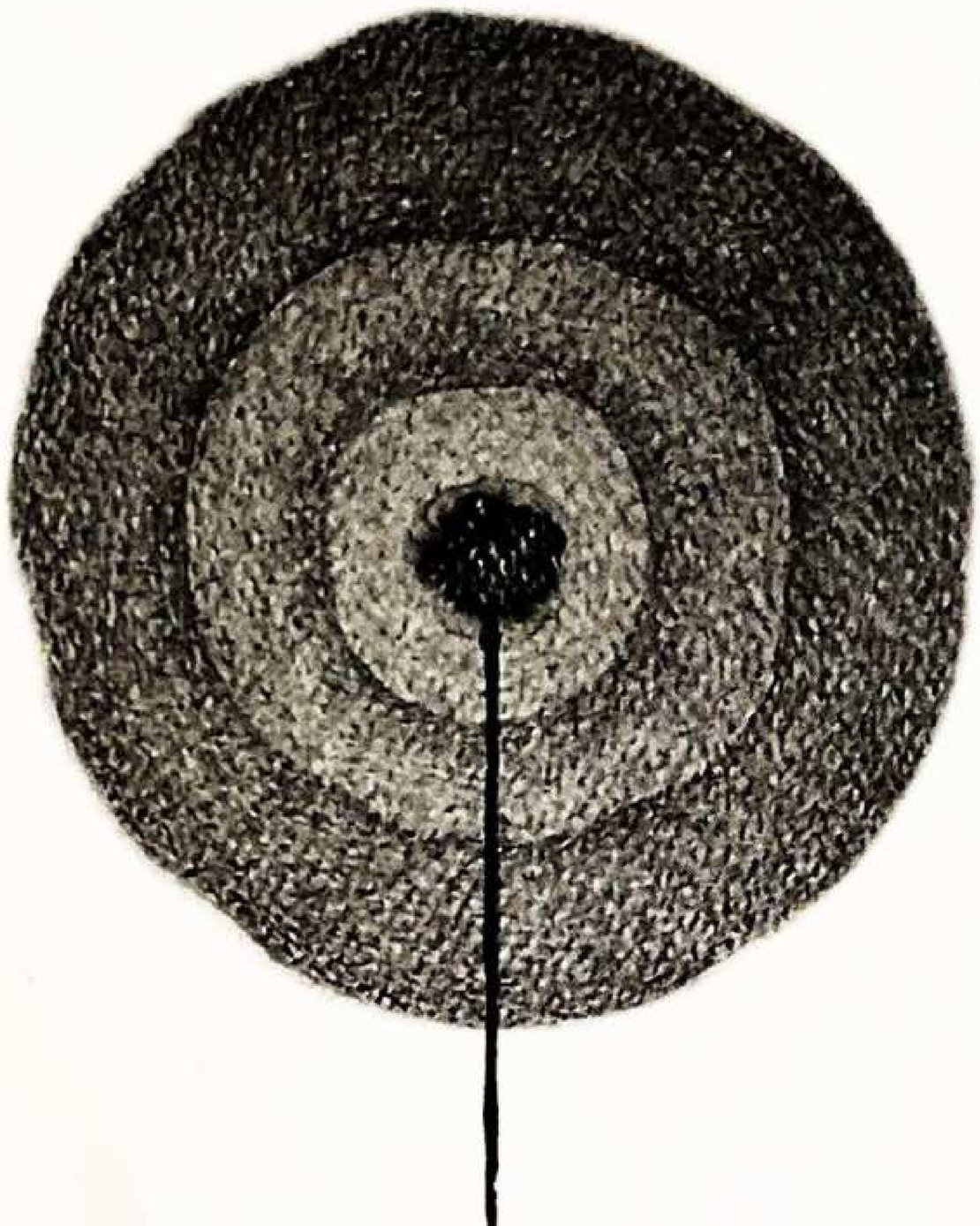

رسالة إلى الناشر

عزيزي أنتونيو،

أرسل إليك هذه الرواية القصيرة، التي كتبتها في دفتر منذ بضعة أشهر. وأنا هنا لست بصدد أن أوجز لك سلفاً أحداث القصة في بضعة أسطر؛ لأنه يصعب عليَّ التحدث عنها؛ ولأنني أفضل أن تسبر أغوارها بنفسك، صفحةً تلو الأخرى؛ وحتى لا أفسد عليك المفاجأة.

إنها قصة انبثقت من منطقة شديدة العمق في حياتي، فكأنها صندوق أسود صغير. عندما تحدثت معك ذات مساء عن هذا الشيء الذي كان يلح عليَّ، والذي كنت على وشك البدء في كتابته، أخبرتك أنه سيمثل لي - على نحو ما - وثيقة إرثية، فلو كان حدث ورحلت عن الدنيا في اليوم الذي تلا كتابتي له، كان ليصير وصيتي. وليس السبب في ذلك أنني أعتبره أكثر أهمية من كتب مثل Gli esordi "البدايات"، أو Canti del caos "أناشيد الفوضى"، ولكن بسبب طبيعته المتميزة، والحميمية، والخفية.

كان هذا الكتاب أيضاً مثل كتاب Gli incendiati "المحترِقون"، يمثل دفقة مفاجئة وغير محسوبة. ومثلما

كان ذلك الكتاب الأول يعد حجراً نيزكياً صغيراً انفصل عن كتاب "أناشيد الفوضى"، كان هذا الكتاب أيضاً يمثل قمراً صغيراً انفصل عن الكتلة التي لا تزال في طور الانصهار، والتي تتشكل منها روايتي الجديدة، والتي ستكون بعنوان Gli increati "الأزليون".

نشأ كتاب "الضوء الخافت" من فكرة تتألف من بضعة أسطر: مجرد مشهد صغير سجلتُه ضمن الملاحظات التي كنت أدونها بشكل سريع على مدى سنوات؛ استعداداً لكتابة رواية "الأزليون". كنت أظن أن هذا المشهد سيمثل جزءاً من تلك الرواية، وأنه سيحتل حيزاً بداخلها لن يتعدى - على أقصى تقدير - نصفِ صفحة صغيرة. ولكن من الواضح أنه استمر في النماء خفية بداخلي. وهكذا وجدته - عند حد معين - يطالب بحياة مستقلة له. وقد بدا في ذلك الوقت مثل مخلوق سيامي صغير، حتى اللحظة التي اضطررتِ فيها لفصله عن الجسد الآخر الأكبر حجماً، والذي كان مهداً لولادته.

وكانت هذه هي قصة الكتاب الصغير، الذي هو بين يديك الآن.

أنتونيو موريسكو

الفصل الأول

أتيت ها هنا؛ كي أختفي، في هذه البلدة الصغيرة الخالية، المهجورة، والتي أعد أنا ساكنها الوحيد.

توارت الشمس منذ قليل وراء أعالي التلال، وأوشك الضوء على الانطفاء. أجلس في هذه اللحظة على بعد بضعة أمتار من منزلي الصغير، قبالة جرف صخري، مغطى بالخضرة. أشاهد العالم، الذي أوشك الظلام أن يبتلعه. ويقبع جسدي دون حراك على كرسي حديدي، من النوع الذي تغوص أرجله باستمرار في التربة، لكنني رغم ذلك تنقطع أنفاسي من حين لآخر، كأنني أسقط مِن على أرجوحة حبالها مثبتة في نقطة ما بعيدة بعدا لا نهائيا في الكون.

تعبر السماء آخر طيور السنونو التي تطير هنا وهناك مثل سهام خاطفة. تكاد تلامس رأسي وهي تنقض في قوة على تجمعات الحشرات المعلقة بين السماء والأرض. أشعر بأثر الريح التي تثيرها حركة أجنحتها على صدغيّ. أرى أمامي بوضوح الجسد الأسود لنحلة طنانة كبيرة، بينما يبتلعها طائر سنونو، كان يطاردها، ومنقاره مفتوح على وسعه، وهو يطلق صيحة. ومن شدة السكون المخيم على المكان أستطيع حتى أن أسمع خشخشة جسدها، الذي يظل يعاني، وهو يُسحق،

وتتفكك أوصاله، داخل جسد الحيوان الآخر، الذي يعاود الصعود منتشياً إلى السماء.

أظل جالساً هنا فترة طويلة. يتبدد الضوء رويداً رويداً، وكل هذا العالم من الخضرة المحيطة بي يشتد إعتاما أكثر فأكثر أمام ناظريّ. ترتفع من كل صوب أصوات الحيوانات الليلية المختبئة داخل الخضرة المعتمة.

لا يوجد أثر لحياة بشرية.

فقط، عندما يصير الظلام أشد كثافة، وينبعث ضوء أوائل النجوم، من الناحية الأخرى لهذا المضيق المنحدر، في رقعة أكثر استواءً في التل المقابل، ومنخفضة مثل ممر جبلي وسط الأدغال، في كل ليلة، كل ليلة، دوماً في الساعة ذاتها، يشتعل فجأة ضوء خافت.

الفصل الثاني

"تُرى ما هذا الضوء الخافت؟ من الذي يشعله؟" أتساءل، وأنا أسير عبر الشوارع الحجرية في هذه البلدة الصغيرة، التي لم يبق فيها أحد. "أتراه يكون ضوءًا ينبعث من إحدى البيوت الصغيرة المنعزلة في الأدغال؟ أو تراه يكون ضوء مصباح ظل هناك بالأعلى، في بلدة صغيرة أخرى مهجورة مثل هذه البلدة، لكنه مِن الواضح أنه لا يزال متصلاً بشبكة الكهرباء، فيشتعل دوماً في الساعة ذاتها؛ بسبب نبض كهربي بسيط؟"

لا أسمع سوى وقع خطواتي وهو يهدر في الطرقات، ألمح الدرجات الحجرية لبعض السلالم المتداعية، والباب المحطم لإحدى الحظائر، وأطلال مبان ذات أسطح إردوازية محطمة، وتغطيها النباتات المتسلقة، وتخترقها قمم أشجار تين أو غار نمت وسط الأنقاض، وحوضَين حجريين ممتلئين بالماء، وبوابات ذات طلاء فسفوري مُقَشَّر.

"أين أكون؟" أسأل نفسي، "ماذا أرى الآن؟ هل يوجد حقاً هذا المكان الذي يقبع خارج العالم، والذي تراه عيناي الآن؟ حتى لو كان لا أحد غيري، في الكون كله، يعرف أنه موجود، يعرف أنه في هذه اللحظة يوجد رجل وحيد تماماً

يتحرك بجسده بين هذه الجثث الحجرية التي تسومها النباتات المتسلقة عذاباً لا يتوقف للحظة واحدة ويستمر ليلاً نهاراً."

أسلك درباً صغيراً منحدراً يؤدي إلى مقبرة صغيرة. عندما يظهر القمر ينكشف أمامي بوضوح، تحت نوره الأبيض الغامر- جانب الطريق الصغير الذي تجتاحه الخضرة، والمنحدرات التي يتناهى منها خرير المياه، التي تشق مجراها في الشعاب الهادرة للجبال المبللة بالمطر، وفي المضايق، وتتضح معالم الأشجار الكبيرة السامقة التي تصل للسماء. فقط في الليل، على ضوء القمر، يمكننا أن نفهم حقاً كنه الأشجار، هذه الأعمدة الخشبية ذات الرؤوس الفائرة التي تشرئب إلى الفضاء الخاوي في السماء.

عندما لا يظهر القمر، يتعين علينا أن نتلمس طريقنا في الظلام، تحت القبة السماوية العارمة، والمليئة بعدد هائل من النجوم غير المسكونة، وببقع ضوئية أخرى.

ذات ليلة، بينما كنت أهبط عبر هذا الدرب الصغير ذاته، وفورٍ اجتيازي لمنعطف كانت العتمة فيه أشد كثافة، سمعت صوتاً خافتاً بين أوراق الشجر. استدرت كي أنظر. كان هناك اثنان من حيوانات الغرير. كانا يحدقان فيّ بعيونهما التي يحيطها البياض، كأنها عاكسات للضوء في العتمة. توقفت في ذهول. عبر أحد حيواني الغرير الطريق الصغير بسرعة، لاستكمال الفعل الذي من المحتمل أنه كان قد شرع فيه قبل أن يراني أظهر أمامه. ظل الآخر بلا حراك، واستمر في التحديق فيّ، وهو مرعوب من ذلك التواجد البشري على أرضه.

ظللت واقفاً أنا أيضاً؛ حتى أتيح له الوقت الكافي؛ كي يعبر الطريق بدوره ويلحق بحيوان الغرير الأول الذي كان بالفعل في الجانب الآخر. لكنه لم يكن يتحرك. كان مستمراً في التحديق فيّ بعينيه الكبيرتين المحاطتين بدائرتين بيضاوين،

وهو لا يزال على جانب الطريق، يقف مكشوفاً في العراء، فهو من شدة فزعه لم يستطع حتى الاختباء بين الخضرة.

- «هيا تشجع!» استحثثته بصوت خفيض. «فلتعبر أنتَ أيضاً! هناك من ينتظرك على الجانب الآخر. سأظل واقفاً هنا، لا تخف، أنا لن أؤذيك».

لكن حيوان الغرير لم يكن يتحرك. ظللت أنظر لتلكما الدائرتين البيضاوين في الظلام. في تلك اللحظة، تراجعت بضع خطوات للوراء؛ كيِ أوسع المسافة بيننا، وحتى يطمئن. ولكن كان يبدو ليّ متسمراً في مكانه. تراجعت أكثر للخلف. لم يكن هذا يكفي، فعدت للوراء حتى وصلت إلى ما قبل المنعطف؛ حتى لا يراني ويقرر أن يعبر الطريق. كنت أمدّ عنقي؛ كي أنظر من حينٍ لآخر؛ لأتبين إن كان قد قرر أخيراً. ولكن كانت توجد دوماً تلكما الدائرتان الكبيرتان البيضاوان، وفي وسط الدائرتين هناك عينان براقتان تحدقان بنظرهما نحوي، وهما تحزران وجودي في الظلام.

في تلك الليلة، اضطررت للعودة للوراء حتى البلدة الصغيرة؛ حتى يسمع حيوان الغرير وقع خطواتي وهي تستمر في الابتعاد، فيقرِر أخيراً أن يلحق بالحيوان الآخر، الذي كان ينتظره مختبئاً وسط الخضرة.

في هذه الليلة، كان السواد حالكاً، فلم يكن هناك قمر. أسير عبر هذا الدرب الصغير المنحدر، حتى منعطف أخير تظهر وراءه فجأة أضواء مقبرة. أستمر في الهبوط، وأنظر من بعيد لهذه الكوكبة الصغيرة من الأنوار في الظلام. أصل أمام البوابة المغلقة. أرى عن قرب الشموع الكهربية المضيئة أمام أفران حرق الجثث، وهي تتلألأ بقوة بلون يتأرجح بين البرتقالي والأحمر، في عتمة هذه الليلة التي لم يظهر فيها القمر. "لعله ينطلق من مكان ما نبض كهربي يشعل أيضاً هذه الشموع..." أقول لنفسي. "ولكن ما السبب في وجود

مقبرة بالضبط بجوار هذه البلدة الصغيرة غير المسكونة؟ من عساهم يكونون هؤلاء الأشخاص المدفونون هنا بالداخل، في الأرض وفي الأفران؟ من أين أتوا يا تُرى؟ رجال ونساء، وحتى أطفال، كما يتبين لي من تلك الأكوام الترابية الأقصر طولاً من الأكوام الأخرى، ومن الصور الفوتوغرافية الصغيرة التي تضيئها بالكاد تلك الشموع..."

أعود إلى بيتي، سالكا الدرب الصغير المعتم، تحت تلك الفوضى العارمة من النجوم. ألمح في العتمة، بجوار الأحواض الحجرية، طيف ضفدع سمين، ربما يكون قد خرج من شبكة حديدية قديمة تغطي فتحة تصريف الأمطار، ويتناهى من تحتها خرير مياه، وقد فر بقفزات ثقيلة، عندما سمع وقع خطواتي.

أدلف للمنزل. أغلق البوابة الصغيرة، رغم أنه لا يوجد أحد هنا. أشرب كوبين من الماء في المطبخ. أصعد السلم الخشبي القصير. أدخل غرفة نومي الصغيرة. أخلع ثيابي، وأرتدي البيجامة. آوي للفراش الصغير، الذي يحدث بعض الصرير عندما أتمدد عليه. تصفر أذناي في هذا الغياب المطلق للأصوات. أظل هكذا قليلاً من الوقت، وعيناي مفتوحتان على وسعهما في الظلام. لا يسعني القول كم من الوقت ظللت هكذا. ربما كنت بالفعل بين اليقظة والنوم، عندما بدا لي أنني أسمع أصوات طقطقة قادمة من أسفل: أصوات جلبة خافتة، وجافة، ومفاجئة، ربما يكون صوت خشب الأثاث، والأدراج، الذي ينكمش، ويتمدد في الظلام.

أنهض. أهبط السلم الصغير، أتجول قليلاً في الطابق السفلي، أشعل الضوء؛ كي أتفقد الوضع، وأتأكد أن كل شيء على ما يرام، وأن أحداً لم يدخل، رغم أنني كنت أعرف أنه لا يوجد هنا أي شخص. أذهب لأتفقد دورة المياه أيضاً. أشد طرّادة الماء في المرحاض؛ لأنه يصدر منها صوتٍ تنقيط ماء خفيف؛ لعدم انغلاق صمام محبس العوامة جيداً، وهو

الصوت الذي يبدو متضخماً في سكون الليل وعتمته.
أعود للفراش. أوشك أن أنام مرة أخرى، ولكن توجد أصوات جلبة خافتة أخرى، تأتي هذه المرة من أعلى، من الفرجة التي توجد بين السقف والسطح. تعود تلك الأصوات للحيوانات التي تنسل من خلال أحجار القرميد، أو عبر المدخنة، وهي حجمها كبير إلى حد ما، فهي ليست فقط عصافير، وإنما أيضا حيوانات من ذوات الأربع، وهي تسير هناك بالأعلى في الظلام، فوقٍ رأسي.
أشعل الضوء. أهبط مجددا من الفراش. أتناول مصباح الجيب. أسند السلم النقال على الحائط. أصعد. أفتح فتحة السقف، فأسعل بسبب التراب الذي يهبط منها. أتأمل من أسفل تلك المنطقة المعتمة المليئة بأشياء مركونة، وأجزاء من ألواح خشبية، وأوراق سيلوفان متحجرة إلى حد ما بعد أن غطاها الجير.
أوجّه ضوء مصباح الجيبٍ هنا وهناك، لكنني لا أرى شيئاً، ولا أجد في الظلام عيوناً تحدق فيَّ، وقد غُشي بصرها من الضوء.
أعود مجدداً إلى الفراش. أطفئ النور فوق الكومودينو، لكنني أنهض على الفور مرة أخرى؛ لأنني لا أذكر إن كنت قد أغلقت الدرفة الخشبية للنافذة الصغيرة. أتحرك بضع خطوات، بأقدام عارية على ألواح الأرضية الخشبية. أطل للحظة من النافذة على هذه الجبال المعتمة المغطاة بالخضرة. أنظر مرة أخيرة لذلك الضوء الخافت المشتعل في الجانب الآخر من المضيقٍ، وسط الظلام.
"ماذا يكون يا تُرى ذلك الضوء الخافت؟" أسأل نفسي مرة أخرى.
أغلق النافذة الصغيرة. أعود للفراش. وبعد وقت قليل، أستغرق في النوم.

الفصل الثالث

يبدأ يومي مبكراً.
أغتسل. أرتدي ثيابي. أذهب لأفتح النوافذ. أتأمل قليلاً كل هذه الخضرة الساكنة، التي تبدو مثل منظر خيالي. لم يعد للضوء الخافت وجود. توجد فقط على امتداد البصر هذه الجبال المغطاة بالأدغال. تميل في انحدار، وتحدها الشعاب والأخاديد، التي تحجب رؤيتها الخضرة الكثيفة، فتبدو مثل منظر طبيعي بدائي تشكل بلمسة إصبعٍ. وبإمعان النظر من تلك الناحية، يمكن أن نميز فقط سطحاً صغيراً أكثر وضوحاً يبرز بالكاد من بين الأشجارٍ.
"أتراه يكون منزلاً صغيراً؟" أسأل نفسي. "ولكن من عساه يسكن هناك بالأعلى، وسط الأدغال؟"
أتناول شيئاً من الطعام. أغسل ملابسي الداخلية المتسخة في طست بلاستيكي أضعه داخل الحوض. أذهب لأنشرها على حبل مشدود بين عمودين مقشرين، وجدتهما على جانب أحد الدروب، عندما أتيت إلى هنا. أغسل الصحون مرة واحدة في اليوم، في المساء، في هذا المنزل الحجري، وسط السكون المطلق الذي يحيط به من كل جانب.
في مواجهة المنزل، على مستوى أكثر انخفاضاً، في

المنحدر المغطى بالأدغال، تنتصب شجرة كستناء نصفها حي، ونصفها الآخر ميت. قمتها العالية تسمو عارية، وبيضاء فوق خضرة الأشجار من حولها، وتبدو متحجرة، بينما بقية النبات توجد به وفرة هائلة من الأوراق الخضراء. أعتقد أنه يوجد على هذا النحو الكثير من الأشجارٍ الأخرى، خاصةً أشجار الكستناء. البعض منها يكون تقريبا ميتا بشكل كامل، ويسمو فوق الغابة بهامته الجلية شاحبة البياض. ولكن، من بعضٍ النقاط في هذه الجذوع المتحجرة، عندما يكون الفصل ملائماً، ينمو فرعان، أو ثلاثة أفرع، وتكاد تنكسر من كثرة ما تحمل من ثمارٍ الكستناء.

أتوقف أحياناً أمام إحدى هذه الأشجار وأنظر إليها.

- «ولكن كيف يمكن العيش هكذا؟» أسألها. «هذا غير ممكنٍ بالنسبة للبشر: فهم إما أن يكونوا أحياءً، وإما أن يكونوا أمواتاً. هكذا على الأقل يبدو الأمر...»

لا تجيبني.

ألمس بيدي سطحها الأملس المقشر المتحجر، وبعد ذلك سطحها الحي المغطٍى بأوراق الشجر. أتخيل نهر العصارةٍ الذي يجري هائجا تحت لحاء الشجرة، ويتحرك ملامسا للجزء الميت، ثم يلقي بنفسه في ذلك الفرع الجديد الذي يمتد نحو الفضاء، وقد ابتدعه دفعه الذاتي. وتوجد أيضاً، في بعض النقاط شديدة الانحدار، حيث تكون الأرض متداعية، جذور أشجار حية قائمةٍ فوق طبقات من الصخر العاري، أو خارج الأرض تماماً ممدودة في الفراغ. وهناك نباتات كبيرة قد سحق أحد الصخور قاعدتها، وهي تمتد بمحاذاة الأرض، ثم بعد ذلك تلوي أطرافها المستدقة نحو الأعلى. وجذوع صغيرة نمت، واحدأ بجوار الآخر، ثم اندمجت في جذع آخر. وجذوع تصعد مثل ثعابين بجوار نباتات أكبر منها، وتلتف حول فروعها. وبالقرب من هناك، أشجار

تحتضر، بعد أن خنقتها سيقان النباتات الطفيلية السرطانية، وغيمة اللبلاب، والنباتات المتسلقة الأخرى، التي تصعد نحو السماء؛ كي تلف حولها في عناق مميت. طحالب، وأشنات تلف بأكفانها المخملية، والبلورية، أعمدةً خشبيةً مائلة، وأحجاراً كبيرةً بارزة فوق سطح الأرض. ونباتات أخرى رفيعة كالخيوط، مثل نباتات الليانا المتسلقة الجافة، التي تنزل من الكتلة المتشابكة لأفرع الأشجار الأكثر ارتفاعا. أو من المحتمل أنها تصعد من الأسفل، فليس من الواضح من أين تنشأ، من الأرض أم من قمم الأشجار، أو ربما لا تنشأ من أحد منهما؛ لأنه لا يوجد فقط الأعلى والأسفل. ربما تنشأ في الوسط، في الهواء؛ كي تتفجر فيما بعد كتكوينات نباتية صغيرة تطلب الحياة، وتطلب الموت. ثم هناك كل هذا الدغل الوحشي، وتلك الآلاف والآلاف من التكوينات النباتية، التي تمسك بخناق بعضها البعض، وتتعارك، حتى من تحت سطح الأرض، حتى الآلاف والآلاف من الجذور الصغيرة، والآلاف من الأشكال الأخرى المدفوعة بخاصيتها الأسموزية، وتكوينات أخرى بدون شكل محدد، وهي بعد ذلك تنبثق مثل جيوش من الأرض بأجسادها العارية، وهي لا تزال بعد بدون إحاء، وتبتدع لنفسها أول أجهزة للتنفس، والتبادل مع البيئة المحيطة، وتشرع في الصعود نحو الأعلى في تشابك صامت، ومحتدم لتكوينات نمت من بذور حملتها الريح، أو قنابل أخرى تندفع في البطن العفن للعالم، وتبدأ نضالها من أجل الصعود للأعلى، نحو النور!.

"لماذا توجد كل هذه النباتات الطفيلية السيئة؟" أسأل نفسي. "والتي تحاول أن تلتف حول الأشجار الأكبر حجماً، وأن تمحوها، وتخنقها؟ لم كل هذه الوحشية البائسة، واليائسة، التي تشوه كل شيء؟ لم كل هذا الحشد من الأجسام، التي تحاول أن تجفف الأجسام الأخرى بأن تمتصها بآلاف وآلاف من

الجذور الجامحة، وممصاتها الصغيرة الهائجة؛ كي تستولي منها على القوة الكيميائية؛ لخلق جبهات نباتية جديدة قادرة على أن تقضي على كل شيء، وتهلك كل شيء؟ أين يمكنني أن أذهب كي لا أرى هذه المذبحة، هذا الاعوجاج الأعمى الذي لا يمكن إصلاحه، والذي يسمونه الحياة؟!

الفصل الرابع

اليوم عقدت لقاءً.
في وقت مبكر من عصر اليوم، بعد أن أكلت، تناولت العصا وخرجت. سرت عبر الدروب، والسلالم الصغيرة، وتحت القباب الصغيرة العارية في هذه البلدة المهجورة. توجد هنا وهناك، قبالة الأرض المفروشة بالحصى، حجارة بارزة كانت في وقت ما تستخدم مثل درجات السلم؛ من أجل الصعود للبساتين الصغيرة الموجودة بالأعلى، وتوجد ألواح مشربة بالجير، نصفها محطم، وأصُص زهور مهملة، اجتاحها نبات حشيشة الزجاج عديم الرحمة، أو زهور، وأشكال أخرى من نباتات حملتها الريح. وفي نقطة ما، فوق جدار صغير، بدلاً من الكَرْمَ، الذي من المفترض أن يغطيه، تنزل أوراق كبيرة، وهجينة، ومجهولة لنباتات تجري على طول الأرض، ثم تمد أطرافاً على شكل خطاطيف، تحاول أن تصطاد بها شيئاً ما. ويوجد، بالقرب من هناك، حوض استحمام معدني قديم، ممتلئ بالتراب، لا بد أنه كان في وقت ما يستخدم كأصيص زهر، فهو الآن مليء بنباتات القراص، وأكوام متشابكةٍ من زهورٍ مختنقة.
سلكتُ مساراً ملتوياً كثعبان، يحاذي المضيق، وتشق وسطه

أخاديد صغيرة حفرتها المياه التي تنزل من الجبل. توجد على الجوانب سياجات من شجيرات العليق الشائكة، تحط عليها الدبابير الهائجة، والفراشات الصغيرة الصفراء، التي تنتشر محلقة في السماء. تظهر هنا وهناك أجزاء من أسلاك شائكة غائرة في الأرض، دمرتها الخنازير البرية في تنقلاتها عبر الأدغال، وقد وضعت هناك في وقت ما، عندما كانت البلدة لا تزال مسكونة. ولكن توجد نقطة ما تتسع فيها المساحة، أرض جرداء صغيرة مرتفعة على جانب الدرب، يمكن الوصول إليها باجتياز جزء من سياج محطم من الأسلاك الشائكة. يمكننا من هناك أن نرى كم هي هائلة هذه الرقعة المترامية الأطراف من الخضرة، والجبال، والأدغال، حيث لا يوجد أثر لحياة بشرية على امتداد البصر. يوجد فقط، من الناحية الأخرى، بالضبط من الناحية الأخرى لهذا المضيق، المكان الذي أرى فيه ذلك الضوء الخافت، وهو ينير، عندما يحل الظلام.

نظرت لذلك المكان مطولاً. تأملت ذلك السطح الصغير الأكثر وضوحاً فيه، ربما يكون ركناً من أركان إحدى المنازل الحجرية المغمورة المنتشرة في أنحاء الغابة.

"من يدري إن كان يوجد فيه شخص ما؟" تساءلت مجددا، وأنا أستأنف السير عبر الدرب.

ولكن لا أثر لأي طريق يؤدي إلى هناك. ورغم ذلك، من يدري أنه لا يوجد درب واحد على الأقل، يمتد وسط الغابة الكثيفة، ولا يمكن رؤيته من هنا؟ هذا غير مستبعد. ربما يسكن شخص ما هناك، ولكن من يستطيع الجزم بهذا؟ خاصة أنني لا أستطيع تبين ذلك من هذه الناحية من المضيق... فأنا على سبيل المثال، أردت ذات يوم الوصول لبلدة صغيرة على بعد عشرين كيلومتراً من هنا، لم أكن قد ذهبت إليها قط. يعيش هناك شخص وحيد، رجل عسكري على المعاش،

أو هكذا على الأقل أخبروني في بلدة أخرى مسكونة توجد في الأسفل، حيث أهبط إليها من حين لآخر لشراء شيء من الطعام، بواسطة السيارة التي أحتفظ بها في حظيرة مهجورة، في أول البلدة.

وصلت إلى هناك، حيث وجدت ساحةً صغيرة تطل عليها كنيسة صغيرة متداعية، وكنت أسير بالعربة ببطء؛ لأن ما تبقى من الطريق المرصوف كان مفككاً، ومكسراً بسبب الأمطار والجليد. توقفت، ونظرت حولي، والمحرك لا يزال مداراً. في اللحظة التالية، برز قطيع من الكلاب الهائجة من مكان ما في البلدة، وكانت تنبح في غضب شديد. ارتمت على السيارة، وهي منتصبة على قوائمها الخلفية، وكانت تضرب الأبواب في شراسة. كنت أسمع الضجة التي يحدثها الطرق المستمر لمخالبها على هيكل السيارة، ونوافذها، وكنت أرى في كل مكان من حولي رؤوسها المشوهة، التي كانت تنبح إلى حد الاختناق، وأسنانها المغطاة باللعاب، وألسنتها. كان يستحيل فتح السيارة بوجود ذلك القطيع من الكلاب، الذي كان يحاصرها، وتلك الكتلة الشرسة من العضلات، التي كانت تضغط عليها من كل ناحية. لم أتمكن حتى من الخروج. أدرت عصا الفتيس، وشرعت أتحرك ببطء؛ كي أشق طريقي وسط كل تلك البهائم الهائجة، التي كانت تستمر في الانقضاض عليّ، وعلى غطاء المحرك أيضاً؛ كي تصل بخطمها حتى الزجاج الأمامي، بل وكانت تهجم أيضاً على السقف، فكان يبدو كأن أحداً ما من مكان ما يرتمي عليّ من أعلى، فكانت تعرض نفسها لخطر أن تدهسها عجلات سيارتي، التي كانت تتحرك ببطء بين تلك الكومة الشائكة من الرؤوس، التي تصر أسنانها غضباً، ومن المخالب، بينما الساكن الوحيد لتلك البلدة المهجورة والمهدمة، ربما كان يمكث مخفياً في مكان ما، تحت قبة كبيرة، أو خلف

إحدى النوافذ؛ ليشاهد وحوشه المفترسة التي كانت تحاصر، ثم بعد ذلك تطرد ذلك الرجل الآخر، الذي حاول الولوج إلى أرضه.

كان الطريق ينحدر قليلاً. كنت أتقدم، وأنا أهش من حين لآخر بالعصا فوق رأسي وكتفي؛ كي أطرد الذباب، والحشرات، التي كانت تأتي لتطن حول ذلك الشخص الوحيد الحي، الذي كان يتنقل في عالمها. إنها عصا معوجة قليلاً، من خشب الكرز، كما يبدو ليّ، عثرت عليها ذات يوم وهي تستند على إحدى النباتات. لابد أن أحدهم قد أعاد تشكيلها، في وقت ما، بتقشيرها تماماً بسكين، ما عدا جزأ في الأعلى، عند المقبض.

وفجأة، بعد منعطف معتم، حيث كانت لا تزال توجد بعض برك المياه الصغيرة التي لم تتبخر بالكامل، رأيت على حين غرةٍ أمامي كلباً ضخماً قاتم اللون، يجلس في وسط الطريق، ثابتاً، بلا حراك، وكان ينتظرني.

توقفت فجأة.

كان الكلب يحدق فيّ في صمت، وهو مستمر في غلق الطريق أمامي. لا بد أنه قد سمع وقع خطواتي من بعيد، فتموضع هكذا في انتظاري.

كنت أنظر إليه أنا أيضاً في صمتٍ، دون أن تبدر مني أية حركة، ودون أن أنبس بكلمة، خاصةً بعد أن تبينت أن ذلك الحيوان الضخم ينتمي لإحدى سلالات الكلاب التي يدربونها على القتال، وهي سلالة روت فايلر.

لم أكن أستطيع مواصلة السير؛ لأن الكلب كان يغلق عليّ الطريق، وهو مستمر في النظر إليَّ في صمت. لم أكن أستطيع طرده بالعصا، لأنني لم أكن أدري أي رد فعل يمكن أن تثيره حركتي العنيفة تلك.

هكذا استدرت حول نفسي واستأنفت السير في الاتجاه

المعاكس من الطريق، دون أن أسرع الخطو أكثر من اللازم؛ حتى لا أعطي الانطباع بأنني كنت ألوذ بالفرار، وكي لا أثير هكذا أي رد فعل عدواني من جانبه. ولكن أيضاً دون أن أبطئ الخطو أكثر من اللازم؛ لأنني كنت بعيداً جداً عن المنزل، وكنت وحدي، تحت رحمة ذلك الكلب.

خطوت الخطوات الأولى دون أن ألتفت. لم أكن أسمع صوتاً وراء ظهري. ربما ظل الكلب هناك، ثابتاً بلا حراك، يجلس في وسط الطريق الذي أغلقه في وجهي، وهو ينظر إلى ظهري الذي كان يبتعد، بحدقتي عينيه السوداوين اللتين تتوسطان رأسه الضخم الشرس.

ولكن على العكس من ذلك، بعد برهة، بينما كنت أنعطف عند المنحنى، وأنا أظن أنني قد صرت على مبعدة منه، شرعت أسمع صوتاً خافتاً منتظماً وراء ظهري.

أدرت رأسي قليلاً.

كان الكلب يتبعني.

كان يسير في بطء، في سكون تام. كنت أشعر بزفيره الثقيل خلف ظهري.

واصلت السير، مسرعاً الخطو قليلاً، ولكن دون أن أعطي الانطباع بأنني أفعل ذلك. ظل الكلب يلاحقني، كنت أشعر به من صوت تنفسه، وكنت ألمحه عندما كنت ألتفت برأسي. كان يلزمني على الأقل نصف ساعة للوصول إلى المنزل، فكنت أواصل السير مع ذلك الكلب الضخم، المدرب على القتال، والذي كان يتبعني في صمت، وسط ذلك الخلاء الهائل من الخضرة الممتدة على مرمى البصر.

"من يدري لم كان يمكث هناك في وسط الطريق، في انتظاري؟" كنت اتساءل. "من يدري لم يتبعني الآن؟ من يدري لماذا لا يصدر عنه أي صوت، لا ينبح، ويكتفي باللحاق بي في سكون تام بتلك الخطوات الثقيلة المتواصلة؟ ترى ما

الذي يفكر فيه بذلك الرأس الضخم الشرس الغامضِ؟"
كنت أطرح على نفسي تلك الأسئلة، خاصةً أنني كنت أعلم كيف تتصرف هذه الكلاب. كنت قد قرأت عن ذلك في الماضي، في الجرائد، في حوادث الاعتداء على رجال ونساء وأطفال هاجمتهم الكلاب، وقتلتهم أو شوهتهم بأنيابها. إنها لا تنبح، ولا تبدو عليها أمارات الاضطراب، والهياج، ولا ينكشف ما يدور في رؤوسها. ثم بعد ذلك، فجأة، تنقض عليك، وتنشب أنيابها في يديك، وذراعيك، وحلقك، ووجهك، وتطحن بأسنانها لحمك، وعظامك. ولا تتوقف حتى تمزقك إرباً، أو حتى يوقفها شخص آخر بضربها بالعصا، أو بإطلاق النار على رؤوسها.
ولكن هناك لم يكن يوجد أحد.
وهكذا كنت أواصل السير في صمت، مع هذا الكلب الضخم الشرس، الذي يلاحقني. كنت من حين لآخرٍ ألتفت بالكاد؛ كي ألقي عليه نظرة جانبية. كان الكلب دوماً هناك، على المسافة ذاتها. كان مستمراً في ملاحقتي في إصرار، وهو يترنح قليلاً.
وفجأة، عند منعطف ضيق، التفت لفترة أطول قليلاً، فتمكنت من رؤيته على نحو أفضلٍ. بنظرة جانبية، لم أر فقط رأسه الهائلة الصامتة، ولكن أيضاً جسده ضخم البنية، مفتول العضلات، في هيئته الكاملة.
كانت أرجله معوجة، شديدة الاعوجاج. بل شيء أكثر من الاعوجاج، كما كان يبدو ليّ.
توقفت عن التنفس.
"كل قوائمه الأربعة مكسورة!" أدركت ذلك فجأة. "ربما هو كلب أتى من إحدى البلدات المسكونة الموجودة في الأسفل، من ذلك النوع من الكلاب الشرسة التي يحتفظون بها؛ للاستعانة بها في الحراسة؛ حتى لا يجرؤ أحد على

الاقتراب من المنزل. من المحتمل أن يكون أحدهم قد كسر له أرجله بمجرفة، بعد أن اعتدى على رجل أو امرأة أو طفل. وربما يكون قد زحف على قوائمه المكسورة، حتى وصل إلى هنا بالأعلى، حيث لا يوجد أحد؛ كي يمحو آثاره."

الآن وقد التفت برأسي لفترة أطول، كان يبدو لي بالفعل أنني ألمح في إحدى القوائم الخلفية للكلب نتوءًا عظمياً يبرز قليلاً من تحت الجلد، عندما كانت رجله تدور كي تخطو خطوة. بينما لا يبرز شيء من القوائم الثلاثة الأخرى، كأن العظام قد التحمت الآن، حتى إنها تتمكن من حمله على نحو ما.

لم أكن أدري ماذا أفعل. لم أكن أدري أأواصل السير أم أتوقف؛ كي أداعب الرأس الضخم لذلك الحيوان الجريح. لكن صمته المطبق كان يرعبني. لم يكن يصدر عنه أنين، أو عواء، ولا أدنى صوت كان ينبعث من جسد ذلك الحيوان المعذب. فقط صوتٍ تنفسه المبحوح العميق، بينما كان يستمر في تتبعي، سائراً على عظامه المكسورة. لم أكن أدري ما الذي كان يمكن أن يحدث لو قربت يدي من رأسه، أو من فمه المليء باللعاب والأسنان. ماذا كان ليدور في رأسه من أفكار. ربما في غضبه الصامت، ووسط ما يشعر به من كراهية، كان ليظن أنني أنا أيضاً أريد أن أقترب منه كي أسبب له أذى، فكان لينشب أنيابه فيّ بدافع اليأس والألم.

وهكذا ظللت أسير لأكثر من نصف ساعة مع ذلك الكلب الضخم الجريح الذي يتبعني، في هذا الخلاء الفسيح من الخضرة. عندما كنت أقابل مرتفعات مفاجئة أو- بعدها على الفور- منحدرات شديدة الانحدار، كنت أظن أن الكلب لن يتمكن من ملاحقتي، وأن جسده كان أثقل من أن يستمر في التحميل على قوائمه المكسورة عبر تلك المستويات المتباينة من الارتفاع. لكنه على العكس لم يكن يفترق عنيّ، ظل

هناك دوماً، دون أن يصدر أنيناً، دون أي صوت، دوماً على المسافة نفسها، مستمر في السير مثل آلة.

"ولكن كيف يمكنه السير لوقت طويل هكذا على تلك العظام المكسورة؟" كنت أتساءل. "أمن الممكن ألا يخرج صوت من جسده، الذي يتعرض لهذا الألم الفظيع؟"

كنت أحياناً لا أشعر بوقع خطواته وراء ظهري. "لم يعد يتمكن من مواصلة السير!" كنت أقول لنفسي. "لا بد أنه قد توقف!" ولكن على العكس، بعد بضع لحظات، عندما أكون قد تركت ورائي منعطفاً ما، أفاجأ بجسده المترنح، الذي لا يزال هناك دوماً وراء ظهري، وعينيه تستمران في التحديق فيّ، صامتتين، وسط رأسه الكبير الذي يسيل منه اللعاب.

عند حد معين، وعلى حين غرة، شعرت بشيء ما يضغط على ساقيّ، من الخلف. كان رأس الكلب، الذي كان قد أسرع الخطو؛ بسبب ميل أحد المنحدرات، وتمكن من أن يرتطم بي بخطمه المبتل باللعاب.

أسرعت الخطو من جديد، دون أن أعطي الانطباع بأنني أفعل ذلك؛ حتى لا أثير غضبه المكبوت، فكنت أتقدم في السير محركاً عضلات جسمي كله وليس فقط ساقي، على مسافة قليلة من لفافات العضلات الجبارة في ذلك الجسد الآخر، لفافات عضلات أردافه، ورقبته، وقوائمه الضخمة، التي تشكل غشاءً يحتوي العظام المكسورة، ويمنعها من البروز للخارج.

وصلت أخيراً للبلدة الصغيرة. ظللت أسير قليلاً عبر الدرب الصغير المهجور، وكنت أسمع من ورائي وقع خطواته المستمر، وصوت مخالبه التي كانت تدق على الحجارة. عندما توقفت أمام منزلي الصغير، وبينما كنت أفتح البوابة، شعرت بأن الكلب هو أيضاً قد توقف. جلس على الأرض من ورائي، في انتظار أن يدخل.

حينئذٍ خطوت بضع خطوات للأمام. استأنف الكلب السير صامتاً من خلفي. رجعت بعد ذلك للخلف فجأة. تلاقت عيوننا بينما كنت أصل للبوابة المفتوحة بالفعل، فدخلت، وأغلقتها مجدداً من ورائي.

عاد الكلب هو أيضاً للوراء. جلس مجدداً على الأرض، من الجانب الآخر للبوابة. كان ينظر إليَّ في سكون، دون أن يصدر أي أنين، صامتاً، ينظر بحدقتي عينيه السوداوين، اللتين تتوسطان رأسه الضخم قوي العضلات، والمليء بالعظم والأسنان.

"الآن سيقف هناك بالخارج؛ ليحاصرني!" كنت أفكر. "لن يتحرك من هناك، حتى أفتح البوابة مرة أخرى؛ كي يدخل في منزلي."

ولكن على العكس من ذلك، في الليل، عندما خرجت مجدداً لأسير في الظلام، لم يكن الكلب موجوداً.

الفصل الخامس

أتوقف في بعض الأحيان؛ لأتحدث مع الحيوانات والحشرات والنباتات، وكل تلك القوى النباتية، التي تتدفق من كل مكان على امتداد خط الأفق.

مع الدبابير، التي تنقض هائجة على تقرحات ثمار التين، التي تتعفن على أفرع الأشجار، فتخترق برؤوسها ذات المناقير الشقوق المليئة بالبذور المتعفنة والعصائر. كنت أقترب منها كثيراً، ربما أكثر من اللازم، حتى إنه ذات يوم لدغ يدي دبور. شعرت بإبرته، وهي تخترقٍ اللحمٍ الرقيق الموجود بين إصبعينٍ من أصابعي، مسببة ألماً شديداً.

ـ «لماذا أنتِ دوماً هكذا هائجة؟» أتساءل. «لماذا ترتمين هكذا، منقلبة على رؤوسك، في لب الفاكهة التي لم يتم جمعها، والتي تتعفن على الأشجار في هذا المكان المهجور، والموجود خارج العالم؟ حتى إنني أحياناً عندما أقطعٍ إحدى هذه الثمارٍ لآكلها، أجد دبوراً بداخلها، فيخرج غاضباً، وقد تلطخ تماماً بالسوائل الميتة، والعصائر التي كان يتمرغ بداخلها مسروراً. أين تعيشين؟ في أي مكان تذهبين للنوم؟ ماذا يحدث، في النهار، وفي الليل، داخل أعشاشك الوحشية؟»

لكنها لا تجيبني.

ومع الضفادع المنفرة، عندما ألمح ضفدعاً منها واقفاً بلا حراك، شبه غائص تحت طبقة رقيقة من الأرض، بجسده الضخم المغطى تماماً باليرقات، في ذلك المكان الذي لا بد أنه كان يوجد فيه في وقت ما بستان؛ لوجود تلك التشابكات النباتية والعقد، التي لا تزال مستمرة في الامتداد هنا وهناك، فتبث الحياة في نباتات مجهولة.

- «ولكن ما هذه الحياة التي تعيشينها؟» أسألها. «مغمورة تحت الأرض، مع مؤونتك من اليرقات السمينة، التي تلتهمينها بنهمٍ هناك بالأسفل، في العتمة. وجسدك مثل قربة لينة، تزداد وزناً، وتنحشر بين الأرض، والظلام.»

لكنها لا تجيبني.

ومع الجذور الطائرة، التي تمتد هنا وهناك، وتعترض طريق كل ما يقع في متناولها، هناك بالأعلى: أوراق شجر متعفنة، وشوائب عالقةٍ، وحبوب لقاح تهيم على غير هدى في الهواء، وربما أيضاً أجساد ضئيلة لحشرات مجنحة كثيرة الأرجل وقرون الاستشعار. وهي تحولهم لغذاء؛ من أجل نبات لا يكون في بعض الأحيان موجوداً، فهي لم تختلقه بعد.

- «لم نبتِ هناك بالأعلى، وليس على الأرض؟» أسألها، وأنا أصيح؛ حتى تسمعني من مكانها بالأعلى، وسط هذا الامتداد الشاسع، والساكن من الخضرة، والذي يردد صدى صوتي. «هل نبتِ حقاً هناك، منذ البداية، أم كنت أنتِ أيضاً في الأرض مثل كل الجذور الأخرى، ثم شرعت بعد ذلك - لسبب ما - في الانتقال باستمرار نحو الأعلى، حتى اتخذت مكانك مباشرةً في الفضاء؟ أو ربما هبطتِ من أعلى، من الفضاء، حيث يحتمل وجود جذور ضئيلة تنزل مثل مطر غير مرئي من السماء، حتى يعترض جذر منها طريق قمة إحدى النباتات وحينئذ يتعلق بها، ويشرع، وهو هناك

بالأعلى، في امتصاص كل شيء يقع في متناوله، قبل أن يبدأ من جديد في النزول باستمرار نحو الأرض، ثم في الولوج داخل الأرض، تحت امتداد خط الأفق، في تلك الكتلة من آلاف الجذور الوحشية الأخرى المليئة بالعصارة، وحيواناتٍ ضئيلة بلا عيون، تلتهم كل شيء، ثم يصعد مرة أخرى شيئاً فشيئاً نحو الأعلى، عبر الجذوع المعذبة للأشجار، وعلى لحائها المثخن بالجراح، ويستمر في الصعود لأعلى، حتى يصل إلى السماء؟»

لكنها لا تجيبني.

ولكن طيور السنونو، على العكس منها، تجيبني!

في بعض الأحيان، عندما أراها تمر مثل السهام فوق الدرب الصغير الضيق، حيث يوجد الحوضان الحجريان المليئان بالمياه، وهي تنزل من أعلى، في اندفاع وسرعة عجيبة، لتصير على مقربة شديدة من الأرض، ثم تلمس الحوضين لتستلب - في تلك اللحظة القصيرة - قليلاً من الماء بمناقيرها؛ لأنها لا تستطيع أن تقطع طيرانها، وتقف على الأرض، وحينئذ، وأنا أقف وحيداً تماماً في ذلك المكان الذي يقبع خارج العالم، ألوح بيديّ نحوها صائحاً:

- «ولكن، هل أنتم مجانين!»

- «أجل، أجل! نحن مجانين!»، تجيبني تلك الحيوانات الصغيرة المهتاجة، دون أن تتوقف عن الاقتراب الشديد من أرض الدرب الصغير، وسطح الماء - مثل سهام خاطفة، وهي تصيح.

أستغرق في الضحك من الانفعال، وأنا أقف بمفردي.

- «ألا يوجد طبيب نفسي خاص بطيورٍ السنونو؟»

- «أجل، يوجد، ولكنه مجنون هو أيضاً!»

- «ولكن كيف إذن يقوم بمعالجتكم؟»

- «هكذا!»، تجيبني وهي تلقي بنفسها فوق الماء، وتنقلب

على رأسها، ثم تحلق بعد ذلك لأعلى، نحو السماء، وهي تقترب مني بشدة في طيرانها، فتكاد تلامس صدغيّ، وعينيّ بأجنحتها، ومناقيرها.

فيما بعد، عندما تتوارى الشمس خلف سلسلة التلال، ويحل الظلام، ويتلاشى كل هذا الامتداد الشاسع من الخضرة، بعد أن يبتلعه السواد الحالك، في الناحية الأخرى، هناك في الأعماق، في كل ليلة، كل ليلة، دوماً في الساعة نفسها، ينير فجأة ذلك الضوء الخافت.

الفصل السادس

كنت، منذ قليل، في الفراش، مستغرقا في النوم، ولم يكد يمر عليَّ وقت طويل وأنا نائمٍ، حتى أيقظني الزلزال.

كثيراً ما يحدث هذا؛ نظراً لأن هذه المنطقة تقع في حزامٍ زلازل. في بعض الأحيان لا أكون حتى قد استيقظت تماماً، ولكنني أيضاً أثناء نومي، أو حينما أكون بين النعاس واليقظة، أظل أشعر بالاهتزازات، التي تصل حتى هنا بالأعلى في السطح، من جراء الانهيارات الأرضية المصاحبة للتصدعات، والتي تتسبب في اهتزاز الفراش الذي أستلقي عليه، وجدران المنزل، والغرفة، والأثاث القليل الموجود بالداخل، وكل البلدة الصغيرة المهجورة التي أعيش فيها، وعلاوة على ذلك تهز أيضاً سطح الأرض، والأشجار، والحيوانات في جحورها المحفورة في باطنٍ الأرض، تلك الحيواناتِ الليلية التي تتنقل في سكون بحثاً عن فريسة، وربما أيضاً تلك التي تطير في السماء، وهي تفتش بعيونها المستديرة في الأرض المظلمة، بحثاً عن شيء حي، وربما من هناك بالأعلى تشعر باهتزاز السماء أيضاً.

في بعض الأحيان، عندما تشتد الاهتزازات، أنهض من الفراش، وأخرج بأقدام عارية، وأسير في البلدة الصغيرة

التي تهتز، حتى أصل إلى ساحة تبعد بمسافة قليلة عن منزلي. أنظر حولي؛ كي أرى إن كانت البيوت المتداعية لاتزال تقف متماسكة، أم أنها انهارت. في الصباح، عندما ينبعث الضوء من جديد، أرى بعض أحجار القرميد المتحطمة هنا وهناك، في وسط الدروب الصغيرة الحجرية، بعد أن سقطت من الأسقف المهدمة لبعض الأطلال. أجول داخل منزلي؛ كي أفحص الجدران، وأرى إن كانت هناك تشققات؛ لأنه يبدو لي مستحيلاً ألا يكون هناك شيء ما قد أصاب بنيته التي تعرضت لهذه السلسلة العديدة من الاهتزازات. أصعد للسطح بواسطة السلم النقال، وأعيد وضع أحجار القرميد التي تحركت من مكانها بسبب الزلزال، أو بسبب تلك الطيور والحيوانات، التي تخربشها بمخالبها؛ كي تشق طريقها بينها، وتدخل أثناء الليل في الحيز الموجود بين سقف غرفتي والسطح، فأسمعها وهي تسير فوق رأسي بينما أكون بين النعاس واليقظة، أو عندما أمكث بعيون مفتوحة على وسعها في الظلام.

في أحيان أخرى، لا أنهض حتى من فراشي، عندما أكون في بداية نومي، ولا أتمكن من أن أفيق تماما. أشعر بالكاد باهتزازات الزلزال، التي تتوالى واحدةً تلو الأخرى، وأصاب بالدوار، والاحساس بالغثيان، والفقدان الطفيف للوعي الذي تحدثه هذه الهزات في جسدي، الذي يظل مستلقياً هكذا، بين اليقظة والنعاس، بينما كل شيء يهتز من حولي، وفي المناطق العميقة تتصادم كتل كبيرة معتمة، وجدران حجرية ورخامية ببعضها البعض.

في هذه الليلة، نهضت من فراشي. تفقدت جدران المنزل، وتلك الحوائط المحيطة بالأبواب؛ لأتأكد من أنه لم يحدث بها تشققات. نزلت كي أفحص أيضاً القبو الصغير الموجود أسفل قبة كبيرة، حيث أخزن فيه الحطب. ثم بعد ذلك أتيت إلى هنا، وأنا أضع غطاءً على كتفيّ، نظراً لأن الجو يصير بارداً

في الليل، رغم أننا في الصيف، وجلست على هذا الكرسي الحديدي ذي الأرجل الرفيعة، التي تنغرس باستمرار في الأرض، أمام الدرابزين الحجري المنخفض الذي يطل على الجرف الصخري. قبل أن أخرج من المنزل أخذت نظارة معظمة قديمة، كنت قد جلبتها إلى هنا لكنني لم أستخدمها قط؛ لأنه لم يكن هناك ما يستحق رؤيته، فقط هذا الامتداد المبهم من الزبد الأخضر الذي يغطي العالم الممتد على مرمى البصر.

أوجهها نحو ذلك الضوء الخافت. أضبط العجلة التي كانت منفلتة قليلاً؛ كي تتضح الرؤية، حيث إن الضوء الخافت يبدو أنه يتسع ويضيق، كأنني أراه من الناحية الأخرى لسطح مائي. لكنني لا أستطيع أن أرى جيداً، ربما يكون هذا بسبب حركة رموشي فوق العدسة، أو ربما بسبب أنه يوجد فوق عيني، التي لا يزال يملؤها النعاس، ذلك الغشاء السائل الذي يشوه المحيط الخارجي للأشياء، ويجعل الأنوار تتشذر. لا يتضح لي على الإطلاق كنه ذلك الضوء الخافت، فالنظر إليه بالنظارة المعظمة لم يمثل فارقاً عن النظر إليه بالعين المجردة، بل لعله أقل فائدة منه. لا يتضح إن كان نوراً ينسل من نافذة، أو مصباحا منخفضا، يتدلى من سلك. رغم ذلك يبدو أنه يزداد دوماً كثافة، يبدو أنه يتلألأ.

"ترى ماذا يكون ذلك الضوء الخافت؟" أسأل نفسي مرة أخرى. "لماذا يبدو في لحظات معينة أكبر حجماً، وأشد كثافة، ثم يبدو على الفور بعد ذلك أنه يضعف حتى يختفي؟ هل عساه يكون شيئاً أخر؟ هل يكون إحدى الإشارات الضوئية الناتجة عن أنشطة مغناطيسية سببها الزلزال؟"

لا يمكن سماع أي صوت، ولا حتى صوت حيوان واحد من حيوانات الليل، ولا صوت الأرض، ولا الهواء. لا بد أنها جميعاً تمكث بلا حراك في مكان ما، وقد تجمدت في أماكنها،

بعد أن جعل الزلزال الأرض والسماء تهتزان تحت أقدامها، وأجنحتها.

"يجب أن أذهب إلى هناك..." قلت لنفسي مرة أخرى، وأنا مستمر في النظر لذلك الضوء الخافت، والغطاء على كتفيّ. "لا بد أن هناك طريقاً، أو بعض الدروب الصغيرة للوصول إلى هناك!"

الفصل السابع

في هذا الصباح، أخرِجت السيارة من الحظيرة. هبطت الطريق الملتوي، منعطفاً تلو الآخر، حتى وصلت إلى أقرب بلدة مسكونةٍ، والتي أذهب إليها مرة في الأسبوع؛ كي أشتري لنفسي شيئاً من الطعام. سرت عبر ذلك الدرب الصغير الملتوي، والمهجور، والذي تبرز منه هنا وهناك جوانب منازل غير مسكونة، وشبابيكها الخشبية مغلقة، ومحطمة، وهي تتسببٍ في ضيق الطريق فجأة. فيما بعد، عندما تقدمت للأمام قليلاً، بدأت تلوح لي أول إشارات على وجود حياة: كان هناك كلب يستلقي في استكانة أمام أحد الأبواب، وينظر للسيارة وهي تمر أمامه بعين مغلقة، وأخرى مفتوحة، وبعض الرجال المسنين، الذين يعملون في بستان، وقطعان صغيرة من النعاج، أو الماعز حالكة السواد ترعى في مرج شديد الانحدار، وفرسة مع مهرها الصغير، وقد توقفا عن انتزاع العشب عندما سمعا صوت السيارة، فرفعا رأسيهما، وهزا ذيليهما.

وصلت إلى البلدة. أوقفت السيارة. وصلت إلى المتجر الصغير، الذي يبيع أغذيةٍ، ومشروبات، ومعدات زراعية، وأدوات معدنية، وبذوراً، وجرائد... توجد بالداخل رائحة

قطط خانقة؛ لأن العجوز التي تدير المتجر تأوي قططاً ضالة. وهي تنام هنا وهناك، جاثمة فوق أكياس البذور، والبضائع الأخرى، أو تسير وهي تتمسح في سيقان الزبائن، الذين يندر وجودهم.

كان يوجد بالداخل رجلان، يُقيّمان معولاً، قبل أن يشترياه. كان هناك رجل آخر أصغر سناً منهما، وكان سميناً، ولديه لحية، وشعر أشقر طويل، ومجعد، ويرتدي زياً ما ذا ألوان فسفورية، ويمكث في أحد الأركان، وهو يبتسم دون أن يفعل أي شيء، ودون أن يشتري أي شيء. ربما كان الابن الأحمق للمرأة العجوز، أو حفيدها، وكان يمكث هناك لتمضية الوقت.

عندما كنت قريباً من الطاولة، وكنت أضع السلع، التي اشتريتها، في كيسين صغيرين من البلاستيك، جربت أن أطرح الأمرِ بشكل عابر، فتساءلت بصوت عال؛ حتى يسمعني أيضاً الزبونان الآخران، إن كان أحد ما يسكن فوق ذلك التل، الذي كنت أرى الضوء الخافت ينبعث منه في الليل.

اهتموا على الفور بالأمر. جعلوني أشرح لهم بالتفصيل أين يوجد ذلك المكان. وحاولت أن أفعل ذلك بقدر الامكان، خاصة أنه لم يكن يمكن رؤيته من البلدة التي كنت موجوداً فيها، فلم يكن باستطاعتي الخروج من باب المتجر، والإشارة نحوه. كنت أحاول إفهامهم أين يوجد المضيق، والمكان المقصود فوق ذلك التل، الذي كنت أتحدث عنه.

- «أيسكن شخص ما هناك، في ذلك المكان؟» تساءل أحد الزبونين، وهو يهز رأسه.

- «لم أعرف أحداً سكن هناك قط! فهناك توجد فقط الغابة!» أجاب الآخر، ثم استأنف فحص المعول، الذي كان يرفعه في الهواء مثل رمح.

- «ولكن ما هذا الضوء؟ ما مصدره؟» سأل الأول مجدداً.
- «من يدري... إنني لا أعرف إن كان ينبعث من نافذة إحدى المنازل، أم من مصباح...»
- «مصباح؟ لا توجد مصابيح هناك بالأعلى. لا يوجد أحد هناك.»
- «إذن سيكون شيئاً آخر» قلتُ، وأنا أتظاهر باللامبالاة؛ كي أنهي الحديث، وأخرج أخيراً من ذلك المكان المفعم برائحة القطط الكريهة.

انتهيت من دفع الحساب، واتجهت نحو الباب.

- «سيكون إذن طبقاً طائراً!» سمعت أحدهم يتحدث، من وراء ظهري.

التفتُ. كان الفتى السمين الذي يرتدي زياً فسفورياً هو من تحدث. نظرتُ إليه. كان لا يزال واقفاً في الركن نفسه، وهو لا يفعل شيئاً، وكان مستمراً في الابتسام، أو الضحك بشفاه مغلقة. كان فمه العريض يبين بالكاد بين شواربه الكثيفة المتموجة ولحيته.

- «ماذا قلت؟ هل أنت تمزح؟» سألته.

لكن ذلك الرجل استمر في المكوث هكذا، وعلى فمه ترتسم تلك الابتسامة البلهاء.

- «لا. لم؟» قال أخيراً، دون أن يتوقف عن الضحك.

التفت من جديد نحو الزبونين الآخرين.

- «يُقال إنه قد شوهدت أطباق طائرة في هذه النواحي» أوضح أحد الرجلين. «يوجد كذلك خبير في هذه الأمور، في بلدة قريبة من هنا. يمكن لحضرتك الذهاب للعثور عليه. فالسؤال لا يكلف شيئا...»

أخبرني باسم البلدة، وأوضح لي كيفية الذهاب إلى هناك.

خرجت من ذلك الجحر، قبل أن أفرغ ما بجوفي؛ بسبب

الرائحة الكريهة النفاذة. وضعت الأكياس بالسيارة. عاودت الرحيل. كنت أنظر، عبر الطريق، إلى حواف الجبال المنحدرة المغطاة بالخضرة، وكنت أتبينها بصعوبة، فقد كانت تبدو كأنها انمحت من شدة نور النهار.

"غداً سأذهب إلى هناك!" قلت لنفسي فجأة.

الفصل الثامن

ذهبت إلى هناك. في هذا الصباح، أخذت السيارة مجدداً، ووصلت إلى البلدة، التي أشار عليَّ الرجل ذو المعول بالذهاب إليها.

إنها لا تبعد كثيراً عن هنا، فالوصول إليها يستغرق عشرين دقيقة، عبر طرق ضيقة، ومتعرجة، يغطي الأسفلت أجزاء منها، ومتشققة في أعماقها بسبب التعرية. في بقعة ما، ترتطم أفرع النباتات، وأذرع العليق الطويلة المليئة بالأشواك بنوافذ السيارة، وزجاجها الأمامي. ولكن الدرب الصغير يتسع بعد ذلك، ويصل حتى بلدة صغيرة، لا يزال فيها بعض السكان. قبل الدخول في ميدان صغير جداً، حيث كانت توجد سيارتان متوقفتان، وشاحنة صغيرة محملة بأكياس من الجير، وخلاطة أسمنت، ومعدات أخرى، أمام منزل صغير فوق منحدر، في منطقة يبدو أن عشبها قد جز منذ وقت قصير، رأيت امرأة عربية على رأسها ووجهها حجاب، كانت تجمع التبن بواسطة مذراة.

سبق لي أن رأيت أخريات مثلها، في البلداتٍ التي لا تزال مسكونة، والتي توجد في مناطق أكثر انخفاضاً. نساء ورجال أتوا من أماكن بعيدة في العالم، إلى هذه البلدات، وهذه القرى

المهجورة الآن، حيث إن المنازل، والأطلال بها ذات أثمان زهيدة.

ترجلت من السيارة، وتلفت حولي. كانت توجد امرأتان عجوزان تجلسان على مقعد خشبي طويل، بوجهين أسمرين من لفح الشمس، ومليئين بالتجاعيد، ورأسين حليقين، وكانتا تحدقان فيّ، وهما تجلسان بلا حراك.

دنوت منهما، وأخبرتهما أنني كنت أبحث عن الرجل الذي يهتم بوجود كائنات فضائية.

في البداية لم تفهما ما أقول. فاضطررت لتكراره مرتين أو ثلاث مرات، مستعيناً بيديَّ، وذراعيَّ.

كانت إحدى المرأتين تهز رأسها بلا توقف، مثل مريض الشلل الرعاش.

- «ولكن، أجل... الكائنات الفضائية، هؤلاء الذين يأتون من عوالم أخرى، الأنوار في السماء...» كنت أصر على قولي.

فهمتا أخيراً. دلتاني على المكان الذي يمكن أن أجده فيه، وهما تتحدثان في حماسة، وبلهجة حادة، وتصيحان، وتقاطعان إحداهما الأخرى.

أخذت أبحث عن ذلك المكان. كان ينبغي عليَّ أن أخرج من البلدة، وأسلك منعطفاً صاعداً. كنت أرى من حين لآخر، معالم بعض الضفادع، والثعابين المنسحقة، والمنطبعة على الأسفلت؛ لأن السيارات كان لا يزال بإمكانها المرور عبر ذلك الطريق، وكانت توجد بلدة صغيرة أخرى، بعد ذلك بقليل، في الأعلى، وهي آخر قرية موجودة بالمنطقة. في الألسنة الأرضية الموجودة بين الانحناءات الضيقة للمنعطفات، بدأت أرى بعض الأبقار المنعزلة، التي كانت تأكل العشب، وبعض الماعز.

وصلت إلى قطعة أرض جرداء، ومكشوفة، وتنخفض

تحت مستوى الطريقِ ببضعة أمتار، حيث وجدت فيها رجلاً يرتدي حذاءً مطاطياً طويل الرقبة، ويحفر بالمجرفة في جبل من الروث.

"لا، لا يمكن أن يكون ذلك الرجل!" قلت لنفسي.

رفع الرجل رأسه، عندما لمحني. ظل واقفاً بالمجرفة معلقة في الهواء، وهي لا تزال مليئة بالروث، الذي فصله عن الجبل، والذي كان يُحمّله على عربة يد صغيرة موجودة هناك بجانبه.

حاولت أن أجعله يفهم عمن كنت أبحث. لكنه لم يكن يسمع. كررت كلامي، وأنا أصيح بصوت أعلى؛ لأنه كانت تفصل بيننا مسافة.

أفرغ الرجل المجرفة في عربة اليد. غرز المعول في الجزء الطازج منٍ الروث المحفور فيه، بينما كانت بقية الجبل مغطاة تماماً بالعشب، وبخضرة أكثر ارتفاعاً.

أشار لي بيده بإشارة فظة؛ كي يخبرني أن أقترب.

شرعت في النزول نحو الأرض الجرداء المنخفضة. ظهر كلب فجأة، من مكان ما، وجرى نحوي، وبدأ يقفز على ساقيَّ، كأنه يريد منعِي من مواصلة السير، بينما كان الرجل، الذي ما زال واقفا بجوار كومة الروث، يكرر لي تلك الإشارة الفظة.

واصلت النزول، والكلب يتشبثٍ بإحدى ساقيَّ. عندما وصلت لأسفل، تناول الرجل فرعاً صغيراً من الأرض، وضرب به الكلب مرتين أو ثلاث مرات، فانفصل عني فجأة.

كانت تفوح رائحة كريهة، رائحة روث وبول، وكان هناك سرب من الذباب والحشرات، التي كان يجب عليَّ إبعادها باستمرار بكلتا يديّ.

نظرت إلى الرجل. كان يقف ثابتاً أمامي، وكان هو أيضاً

ينظر إليّ. كان سرواله متيبساً من أثر الروث، وكان قميصه متسخاً، وممزقاً عند الصدر. كان أصغر سناً مما كان يبدو ليّ من بعيد، وكان أصلع تماماً، ولكن كانت تطوق أسفل رأسه شعرات شقراء طويلة تتدلى حتى كتفيه، وكانت أذناه بارزتين، وذقنه حاداً، وفمه رفيعاً، وزاويتاه مقوستين لأعلى.

حاولت أن أقول شيئاً عن سبب وجودي هناك، وإن كان هو الشخص الذي يهتم بمسألة الكائنات الفضائية. لمّحت له أيضاً عن ذلك الضوء الخافت.

كان الرجل يستمر في النظر إليّ ولا يجيب، لم يكن يبدو حتى أنه باستطاعته الرد. كان يصدر فقط، من حين لآخر، أصواتاً مبحوحةً، تتحول بشكل مفاجئ لأصوات حادة، لم تكن حتى تبدو أنها أصوات بشرية، بينما كان الكلب مستمراً في التحديق فينا عن بعد، وهو يحرك رأسه لينظر إليّ أولاً، ثم إلى صاحبه.

"ماذا أفعل هنا؟" خطر هذا السؤال حينئذ على بالي... "إن هذا الشخص لا يستطيع حتى التحدث!"

أشار ليّ الرجل فجأة بأن أتبعه، واتجه نحو بوابة مبنى من الحجر والخشب، من المفترض أنه حظيرة.

لحقت به، وأنا أسير على تلك الأرض المغطاة بالروث الرطب، وأستمر في إبعاد الذباب والحشرات بيدي، بينما كنت أرى أمامي ظهره النحيف، وأرجله التي كانت تتأرجح داخل ذلك السروال الفضفاض المربوط عند خصره بحبل، والذي كان صلباً مثل درع، وقفاه الأصلع، الذي كانت تنساب منه الشعرات الطويلة المدهونة، والملساء.

دلفنا إلى الحظيرة. التفتت نحونا ثلاث أو أربع بقرات في آن واحد برؤوسها الضخمة؛ كي ترانا. تأملتنا قليلاً، قبل أن تستدير مجدداً وتستأنف مضغ الطعام.

توقف الرجل أمام طاولة خشبية كبيرة، وقديمة، تتبعثر

عليها حبال بالية، ودلاء. رفع غطاءً سميكاً، وممزقاً، ومتسخاً، كان يغطي شيئاً ما. في اللحظة التالية، تملكتني دهشة هائلة، وأنا أرى أمامي شاشة جهاز كمبيوتر. كانت من نوع شاشات البلازما المسطحة.

بحث الرجل عن لوحة المفاتيح، التي كانت قد انتهت بها الحال تحت كومة الحبال المتشابكة. جلس، بساق واحدة، على كرسي صغير من النوع الذي يستخدم عند حلب الأبقار. قام بتشغيل جهاز الكمبيوتر.

كنت أنظر إليه، وأنا أحبس أنفاسي، واقفاً خلفه على قدمي، خلف رأسه الصغيرة الصلعاء التي تبدو مثل بيضة، وكانت تهتز قليلاً، حيث كانت يداه الملوثتان بالروث قد بدأتا بالفعل في النقر على لوحة الكتابة.

- «أين قلت إنك تراه، ذلك الضوء الخافت؟» سألني فجأة، دون أن يلتفت نحوي، ودون أن يتوقف عن الكتابة.

ظللت مذهولاً، فمنذ لحظة واحدة فقط كان ذلك الرجل يعبر عن نفسه فقط بإصدار أصوات غريبة، وكان يبدو عاجزاً عن الكلام، ولكن على العكس الآن عندما وصل أمام الكمبيوتر الخاص به، كان يتحدث بطلاقة، ولكن فقط بلكنة غريبة، لم تكن تبدو لي أنها من هذه النواحي، كأنها لشخص أتى من ألبانيا، أو من دول البلقان.

"يوجد هنا مثل هؤلاء الأشخاص – كنت أفكر والحيرة تنتابني – الذين يصلون أيضاً من البلاد السلافية، من رومانيا، أو من أوكرانيا، أو من مقدونيا، أو من الجبل الأسود، أو من ألبانيا، في هذه المناطق غير المأهولة، حيث يعملون كرعاة، أو يعتنون بالحظائر. في بعض الأحيان، يحرقون الأدغال؛ كي يقوموا بتوسيع المراعي، وحينئذ يطردونهم، وهم ينهالون عليهم ضرباً بالعصا، فينتقلون بقطعانهم إلى منطقة قريبة..."

التفت الرجل الآن نحوي. فتح نافذة مليئة بنقاط صغيرة مضيئة، كانت تتلألأ على الشاشة المعتمة. كان يشير ليّ بيده حتى أنظر إليها.

- «إنها خريطة كل المشاهدات في هذه المنطقة» قال لي، وقد انطلق لسانه فجأة يتحدث في سلاسة، بلكنته الغريبة. «أقوم دوماً بتحديثها. لقد راقبت كل الأراضي. توجد هنا مشاهدات مستمرة لكائنات فضائية...»

- «ولكن... لا أدري...» قلت في تردد، وحيرة. «أنا لم أقل أن الأمر يتعلق بكائنات فضائية... لقد تحدثت فقط عن ضوء خافت يشتعل في مكان ليس من المفترض أن يوجد به أحد...»

كانٍ الرجل ينظر إليّ، ورأسه ملتفت نحوي، وهو لا يزال جالساً على كرسيه الصغير المتنقل، وبعيونه فاتحة اللون، التي تكاد تكون بيضاء، بينما فمه لا يزال مقوساً لأعلى، كأنه قد انطبعت عليه ابتسامة ثابتة.

- «ما شكله، هذا الضوء؟» سألني.

- «يصعب القول... إنه ليس ضوءًا بالضبط، إنه نور خافت... ولكن في بعض الأحيان يبدو لي أنه يسطع على نحو أكثر كثافة في الظلام، يتسع قليلاً، ويتمدد. ولكن ربما يكون فقط تأثيراً بصرياً، شيئاً ما يحدث فقط على شبكية العين، إذا ظللنا نحدق فيه في الظلام الحالك الذي يسود الليل...»

أشار لي بإصبعه إلى خريطة المنطقة التي تضم النقاط الصغيرة المضيئة للمشاهدات، وطلب مني أن أحدد له بالضبط النقطة التي أرى فيها ذلك الضوء الخافت.

وجدت بعض الصعوبة في العثور عليها، ولكنني بعد ذلك، بالاستعانة بأسماء بعض الجبال، والبلدات، وباتباع الخطوط المتقطعة لبعض القمم الأعلى بجوار المضيق الصغير، نجحت في ذلك.

استانف الحديث، بينما كان مستمراً في النقر على لوحة المفاتيح، وهو يحرك الماوس بسرعة فوق تلك الطاولة الخشبية القديمة، التي تعج بكل شيء؛ كي يُدخل في شبكة النقاط تلك النقطة المضيئة الجديدة أيضاً، في الموضع الذي أشرت له بالضبط.

- «ها هو، إنه هنا» أنهى كلامه بتنهيدة يشوبها الفرح، وهو يضع إصبعه المتسخة فوق تلك المنطقة المعتمة في الشاشة، والتي صارت فيها الآن تلك النقطة الضوئية.

التفت نحوي، ونظر لي في انفعال.

- «لم يكن هنا من قبل أي اتصال!» قال لي. «إنها المرة الأولى التي يحدث فيها!»

- «لا أدري إن كان اتصالاً...» حاولت مرة أخرى أن أخبره. لكنه لم يكن يصغي لكلامي، وواصل حديثه، وهو لا يثنيه شيء.

- «كل النقاط المضيئة الأخرى سُجلت فيها مشاهدات، كانت أيضاً متكررة، واتصالات. هذه المنطقة زارتها الكائنات الفضائية كثيراً. لا توجد فيها قواعد عسكرية، أو أجهزة إرسال. إنهم يهبطون هنا؛ لأنها مناطق غير مأهولة، ويمكنهم البقاء مطمئنين؛ فلن يطاردوهم بأجهزة قياس المغناطيسية، وآلات التصوير، وأجهزة الرادار، ومقاييس الثقل النوعي، وأجهزة الليزر، والميكروفونات مكافئية المقطع، وأجهزة تحليل الطيف... عندما تكون هناك مشاهدة جديدة يأتون على الفور إليّ: فلاحون، وصيادون، ورعاة، ورجال كانوا يقطعون الحطب أمام منازلهم، في الليل، ونساء عجائز يعشن بمفردهن، ويمضين الوقت واقفات خلف درابزين شرفاتهن، أو نوافذهن، حتى عندما يحل الظلام، ويتفقدن كل شيء، ويرين كل شيء. إنهم المراقبون الخاصون بي الموزعون في أنحاء المنطقة. وأنا أيضاً هنا أقوم بذلك، وأنا أجول في

الليل لجمع البهائم وإعادتها إلى الحظيرة...»
توقف عن الكلام؛ لأن أقرب بقرة منا ضربت بذيلها شاشة الكمبيوتر مرتين، وهي تحاول أن تبعد الذباب. ضرب الرجل الذيل بيده لإبعاده؛ حتى لا يلحق الضرر بالشاشة.
«تعال معي!» قال لي فجأة.
نهض من على الكرسي. غطى الشاشة مجدداً بالغطاء القديم. خرج من الحظيرة. أدخل إصبعين في فمه وأطلق صفيراً. وصل الكلب مهرولاً، ولسانه يتدلى من فمه. كان يقفز على أرجله الخلفية قفزات عالية، وهو ينبح.
- «تعال! تعال!» ظل الرجل يقول لي، أو الفتى، فمن الصعب إعطاؤه عمراً محدداً.
تسلق مساراً صاعداً. كانت قدماه تتأرجحان داخل الحذاء المطاطي الطويل.
شرعت في اللحاق به، بينما كان الكلب قد انطلق للأمام، وبلغ بالفعل قطيعاً من الماعز كان يرعى على مسافة قريبة.
كان الرجل مستمراً في الكلام، أو على الأصح الصياح، حيث استأنف من جديد، بسبب ما كان يشعر به من إثارة، إصدار تلك الأصوات غير المفهومة، والتي لم تكن تبدو أنها أصوات بشرية.
صرنا في وسط القطيع. بدأ الكلب يجري عند الأطراف، وهو ينبح بقوة، ويثب على إحدى العنزات ويعضها في إحدى قوائمها؛ حتى يعيد التماسك للقطيع. كنا نسمع الضجة التي كانت تحدثها الأجراس المعلقة في أعناق الماعز، وهي تدق بقوة ودون توقف، بينما كان القطيع يتفرق هنا وهناك؛ للهروب من غضب الكلب المبتهج.
كان هناك أيضاً تيس بقرون طويلة مقوسة، يمكث منعزلاً عن القطيع، ويقضم الأوراق الصغيرة المنخفضة لإحدى الأشجار، وهو يقف على أرجله الخلفية.

توقف الرجل عن السير.
- «لقد رأت هي أيضاً!» قال لي فجأة، بعد أن عاد يتحدث بلغة مفهومة مجدداً، لغة بشرية.
- «رأت ماذا؟» سألته.
- «رأتهم.»
- «من هم؟«
- «الفضائيون! الكائنات الفضائية!»
نظرت إليه. كان هو أيضاً ينظر إلي، بعيونه ذات اللون الرمادي الفاتح، الذي يكاد يكون أبيض، وفمه مرفوع الزوايا.
- «أنا أيضاً رأيتهم!» أردف قائلاً.
كنت أنظر إليه دون كلام، وسط نباح ذلك الكلب، وضجيج الأجراس، بينما كان التيس مستمراً في أكل أوراق الشجر الصغيرة، وقائمتاه الأماميتان مستندتان على جذع الشجرة.
- «هي أيضاً...» قال لي مجدداً، وهو يشير إلى قطيع الماعز، وكان يبدو غير قادر على الكلام من شدة الانفعال.
- «هي ماذا؟» سألته مرة أخرى؛ لأنني لم أكن أفهم ما كان يحاول إخباري به.
ازدرد لعابه مرتين أو ثلاث مرات. استرخى واستعاد السيطرة على انفعاله.
- «ذات ليلة...» استأنف حديثه فجأة بطلاقة «بينما كنت أنزل من أحد الدروب، ومعي الماعز؛ كي أعيدها داخل الحظيرة، رأيت نوراً لم أر مثله من قبل يصعد لأعلى من أحد الوديان العميقة. "ترى ما هذا النور؟" سألت نفسي؛ لأننا هنا في منطقة متصدعة، ويمكن أن تحدث فيها ظواهر جيولوجية ضوئية ناتجة عن الطاقة المنبعثة من سطح الأرض. اندفعت العنزات تهبط عبر الوادي، بعد أن جذبها ذلك الضوء المنبعث في الظلام. عندما وصلت أنا أيضاً للنقطة التي يمكن أن أطل

توقف الرجل عن السير.
- «لقد رأت هي أيضاً!» قال لي فجأة، بعد أن عاد يتحدث بلغة مفهومة مجدداً، لغة بشرية.
- «رأت ماذا؟» سألته.
- «رأتهم.»
- «من هم؟«
- «الفضائيون! الكائنات الفضائية!»
نظرت إليه. كان هو أيضاً ينظر إلي، بعيونه ذات اللون الرمادي الفاتح، الذي يكاد يكون أبيض، وفمه مرفوع الزوايا.
- «أنا أيضاً رأيتهم!» أردف قائلاً.
كنت أنظر إليه دون كلام، وسط نباح ذلك الكلب، وضجيج الأجراس، بينما كان التيس مستمراً في أكل أوراق الشجر الصغيرة، وقائمتاه الأماميتان مستندتان على جذع الشجرة.
- «هي أيضاً...» قال لي مجدداً، وهو يشير إلى قطيع الماعز، وكان يبدو غير قادر على الكلام من شدة الانفعال.
- «هي ماذا؟» سألته مرة أخرى؛ لأنني لم أكن أفهم ما كان يحاول إخباري به.
ازدرد لعابه مرتين أو ثلاث مرات. استرخى واستعاد السيطرة على انفعاله.
- «ذات ليلة...» استأنف حديثه فجأة بطلاقة «بينما كنت أنزل من أحد الدروب، ومعي الماعز؛ كي أعيدها داخل الحظيرة، رأيت نوراً لم أر مثله من قبل يصعد لأعلى من أحد الوديان العميقة. "ترى ما هذا النور؟" سألت نفسي؛ لأننا هنا في منطقة متصدعة، ويمكن أن تحدث فيها ظواهر جيولوجية ضوئية ناتجة عن الطاقة المنبعثة من سطح الأرض. اندفعت العنزات تهبط عبر الوادي، بعد أن جذبها ذلك الضوء المنبعث في الظلام. عندما وصلت أنا أيضاً للنقطة التي يمكن أن أطل

منها على المنحدر، رأيت أسفل مني جسماً كروياً يعمي الأبصار بنوره. أغلقت عيني، مخافة أن أصاب بالعمى. كان هائلاً. كان معلقاً بالكاد فوق الأرض مثل بيضة ضوئية ضخمة بلا قشرة. غطيت عيني بيدي، لكنني رغم ذلك كنت لا أزال أرى. كان يبدو لي أن ذلك الضوء الذي يخطف الأبصار كان يشتعل مجدداً على نحو مستمر، رغم أنه كان بالفعل مشتعلاً، كأن هناك شيء ما يُفتح بداخل ذلك الضوء، فيخرج منه ضوء آخر. ازداد اندفاع العنزات أكثر، وهي تجري عبر الجرف، نحو ذلك الباب الضوئي الذي انفتح بداخل النور. دخلت فيه بسرعة، واحدةً تلو الأخرى. دلف أيضاً الكلب الذي كان يلاحقها، وكذلك التيس. لم يعد يُسمع صوت الأجراس المعلقة في رقابها. أخذت أنا أيضاً أجري وراء قطيعي، في محاولة لاستعادته، ولكن عندما وصلت بالقرب من ذلك الباب الضوئي، انغلق فجأة. ارتفعت البيضة في الهواء، بكل ذلك النور الذي لم يكن يمكن النظر إليه. ثم بعد ذلك اختفت، ولكن ليس بالتدريج، وإنما فجأة، كأنه قد تم امتصاصها داخل شيء ما غير مرئي، شيء موجود ولكنه غير مرئي.»

- «ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟ أين يمكن أن تكون قد ذهبت؟» حاولت أن أقول شيئاً؛ لأن الرجل توقف عن الكلام، وكان ينظر إلي في انتظار أن أقول شيئاً ما أنا أيضاً.

- «من يدري؟ إنه انتقال في الفراغ الفوقي، نافذة، انتقال للمادة عن بعد...»

كنت أنظر إليه بعيون مفتوحة على وسعها من الدهشة، كنت أنظر لذلك الرجل الشاب الأصلع، الذي كان يتحدث بلكنة أجنبية واضحة بشدة، والذي كان منذ لحظة مضت يصدر أصواتاً غريبة، وفي اللحظة التي تليها، عندما كان يتحدث عن الكائنات الفضائية، بدأ يتكلم بطلاقة، كأنه شخص

مختلف تماماً عن ذلك الشخص الذي كان موجوداً في اللحظة السابقة.

- «ماذا سأفعل الآن؟ قلت لنفسي في يأس، وأنا أعود إلى الحظيرة» استأنف الحديث. «بدون القطيع، وبدون التيس، وبدون الكلب... في الليلة التالية عدت إلى هناك... لم يعد هناك تلك الكرة البيضاوية الضوئية، ولكن كان قطيعي، وكلبي يمكثون هناك بانتظاري. كان الكلب ينبح من الفرحة عندما رآني، وأنا أصل. هرعت العنزات نحوي بأجراسها، التي كانت تدق بلا توقف. من المعروف أنها – العنزات - حيوانات حمقاء. هذا إن كانت حمقاء، هذا إن كانت حيوانات...»

وكان في الوقت نفسه يشير لي بيده نحو القطيع، الذي كان يستمر في الجري على نحو متعرج هنا وهناك؛ بسبب انقضاض الكلب المستمر عليه، لرغبته في أن يظهر مهارته لصاحبه، وربما أيضاً لي، بينما ابتعد التيس قليلاً في لا مبالاة، واستمر في الأكل، رافعاً جسمه أكثر، وهو يستند على قوائمه الخلفية، ويمد جسمه وعنقه؛ كي يصل لأوراق الشجر الأعلى.

- «ماذا يا ترى حدث؟ لم أعادوها إلي؟» كان الرجل يتساءل. «إلى أين حملوها؟ هل هي العنزات السابقة نفسها؟»

تبادلنا النظرات دون كلام. توقف التيس فجأة عن قضم أوراق الشجر، وعاد يقف على قوائمه الأربع، وشرع يجري عبر الدرب، في وثبات عالية وخفيفةٍ على نحو مذهل، فكانٍ يقفز على حوافره المشقوقة، رافعاً ظهره بشدة ومقوساً جسمه، ولم يكن يبدو ممكناً أن حيواناً بهذه الضخامة وهذا الثقل يستطيع أن يتحرك بمثل هذه الخفة.

عندما رحلت، حياني الرجل من بعيد، مصدراً أصواته المعتادة.

"لا يوجد شيء! لا يوجد شيء!" كنت أقول لنفسي، وأنا

أعود بالسيارة عبر تلك المنعطفات، التي كانت تزداد ضيقاً، وخلواً من السكان، كلما دنوت أكثر من المكان الذي أعيش فيه. "يوجد فقط، في كل مكان، هذا الحشد اليائس من الحياة والموت عبر الزمان والمكان، هذا التخيل اليائس..."

أنا هنا الآن. تشتد العتمة، فقد انتصف الليل. أتأمل ذلك الضوء الخافت.

"سأذهب إلى هناك!" قلت لنفسي فجأة. "سأذهب لأرى ماذا يوجد في تلك البقعة!"

أنهض من فوق الكرسي الحديدي، أذهب لأغلق درِفتي الشباك، فأسمع مفصلاتهما الصدئة وهي تحدث صريراً، في هذا المكان المهجور الذي لا يوجد به أي كائن بشريٍ حيٍ. أخلع ثيابي. أستلقي على الفراش، الذي يصدر صريراً خافتاً كلما تحركت. أمكث بعيون مفتوحة على وسعها في الظلام، في انتظار النوم.

الفصل التاسع

اجتاح هذا الصباح المطر، والبَرَد، والرياح. يستحيل الذهاب إلى هناك. تأملت طويلاً من النافذة تلك الفوضى العارمة من المياه والجليد، اللذين كانا يتساقطان بعنف من السماء. كانت الريح تعصف، وأحجار القرميد تطير في الهواء، وكانت هناك حبات بَرَد كبيرة، ومسننة الحواف تضرب زجاج النوافذ، حتى كادت أن تكسره. اضطررت لغلق مصاريع النوافذ الخشبية، فمددت جسمي قليلاً للخارج، بينما كانت تلك القذائف الصلبة الباردة تضربني، وتجرح يديّ، وذراعيّ، ورأسي.

عندما تمكنت من الخروج، كانت هناك قطع من الجليد تغطي كل شيء. أخذت السلم، وصعدت عليِ السطح حتى أعيد أحجار القرميد لموضعها. سرت قليلاً عبر البلدة، وتوقفت؛ لأرى الزهور النامية هنا وهناك، والتي صارت الآن كلها مدمرة، وتالفة. حتى زهور الزنبق الأبيض الثلاث، التي كنت قد تابعت بترقب إزهارها داخل أصيص فخاري قديم مليء بالتراب، وموجود قبل سلم حجري صغير، فكنت أقف كل يوم؛ كي أشاهد، واستنشق وريقاتها، التي تفتحت تواً. تزهر الزنابق هنا في وقت متأخر عن المعتاد، فهي لا تزهر

في شهر مايو، وإنما في يونيه، بل أيضاً في أواخر يونيه. منذ أيام قليلة، كانت سيقانها الطويلة تتمايل تحت ثقل سبلاتها الكبيرة البيضاء، ومدقاتها المحملة بحبوب اللقاح الصفراء. كانت تنشر عطراً طيباً من حولها، منذ بدأت براعمها المغلقة تتفتح، وتصير أكثر بياضا.

ها هي الآن هنا مهشمة، وسبلاتها مدمرة، وسيقانها منكسرة، وغبار الطلع الأصفر يسيل على ما تبقى من التويجات البيضاء الممزقة.

"يا للهول! يا لها من كارثة!" أحدث نفسي، وأنا أبتعد؛ كي لا أرى. "كم هو مروع السقوط تحت وطأة حبات البَرَد في لحظة الإزهار بالضبط! بعد كل ذلك الكفاح الدؤوب، والعمل الكيميائي الخفي، في البصيلات الموجودة تحت الأرض، أثناء الشتاء، والربيع، والذي تلاه ذلك الصعود المفاجئ، والذي يكاد يكون معجزة، للسيقان الطويلة المستقيمة مثل السيوف، ثم تلك الانتفاخات، التي تشرع في الظهور هنا وهناك، والتي تجعل السيقان تنحني من وطأة ثقلها الجديد، ثم تلا ذلك تفتحها السريع، الفوري، الذي يحدث في غضون ساعات قليلة، فتجدها في المساء لا تزال بعد مغلقة، وفي الصباح التالي تكون قد تفتحت بالفعل، ناشرة عطرها... إنها آلة الإزهار المنطلقة، التي لا يمكنها الإبطاء، ولا يسعها التوقف، ثم بعد ذلك، فجأة، في تلك اللحظة بالضبط، ينقض المطر البارد، والثلج، وكل تلك القطع الجليدية، التي تهبط على حين غرة من السماء وتشن هجومها على تلك التويجات البيضاء النامية حديثاً..."

الفصل العاشر

مر يوم واحد. في أثناء الليل، أبعدت الرياح السحب السوداء، التي أتت بثقلها من كل الأنحاء، فبدت صفحة السماء.

ذهبت لأركب السيارة. قمت بإخراجها من تلك الحظيرة الضيقة، التي لا تزال جدرانها، وعوارض سقفها الخشبية مشبعة برائحة البهائم، التي كانت تعيش بداخلها.

"كيف سيمكنني العثور على ذلك المكان؟" كنت أحدث نفسي، وأنا أهبط نحو عمق المضيقٍ، عبر ذلك الدرب الصغيرٍ المسفلت، ثم أعاود الصعود قليلاً من الناحية الأخرى، بحثاً عن طريق صغير آخر، أو على الأقل ممر يمكنه أن يوصلني إلى أقرب نقطة ممكنة من التل، الذي أرى فيه ذلك الضوء الخافت يتلألأ في الليل.

كنت أصعد ببطء. كانت هناك منعطفات متتالية، وكانت من شدة ضيقها تسبب لي بعض الدوار. كنت أنظر نحو الزاوية العلوية للزجاج الأمامي، حتى لا تغيب عن نظري تلك البقعة الموجودة في التلال والأدغال، والتي ينساب منها في الليل ذلك النور الضئيل حتى يصل إليّ. كانت بعض الطيور تعبر الطريق من حين لآخر، وهي تطير على ارتفاع منخفض، وتكاد تكون على نفس ارتفاع الزجاج الأمامي للسيارة؛ كي

تتفحص ذلك الذي يتسلل إلى مملكتها.
وفجأة، بعد سلسلة من المنعطفات، التي ازدادت ضيقاً، وعبر الأسفلت، الذي كان مكسراً ومتداعياً تماماً، بدا لي أنني ألمح مدخلاً لإحدى الطرق الصغيرة، أكبر قليلاً من مدق ترابي. لكنني كنت قد اجتزته بالفعل، فقد أدركت وجوده متأخراً؛ نظراً لضيقه الشديد، كما كانت تخفيه الخضرة المحيطة به.
أوقفت السيارة. عدت عشرة أمتار للوراء. دخلت في المدق، ثم توقفت بعد ذلك على الفور.
ترجلت من السيارة؛ حتى أرى إن كان بوسعي أن أواصل الطريق بالعربة، أم أنه يجب عليَّ السير على الأقدام.
نظرت حولي. كان المدق مغلقاً من كل جانب بسبب الخضرة، التي اجتاحت جزءًا كبيراً من المسار المخصص للسيارات، لكن نهايته كانت متسعة بقدر كاف، حتى أنه كانت توجد أجزاء صغيرة من الأسفلت هنا وهناك، وقد اجتاحتها الحشائش ونباتات العليق، كعلامة على أنه كان في وقت ما درباً صغيراً. وكانت تتناهى من أعلى صيحات الفزع القصيرة التي تصدرها السناجب.
صعدت مجدداً إلى السيارة. تأملت قليلاً، عبر الزجاج الأمامي، ذلك العالم المجهول، الذي كنت على وشك دخوله، وأنا لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل: أأدير المحرك، أم أواصل سيراً على الأقدام، خاصةً أنني لم أكن أعرف حتى إن كان ذلك المدق يؤدي بالفعل إلى ذلك المكان في التل، الذي كان ينبعث منه الضوء الخافت.
أدرت المحرك مرة أخرى وحركت عصا الغيار. شرعت السيارة في التحرك ببطء على ذلك الشريط الضيق من الطريق. ووسط سكون الخضرة المطبق، كانت تتردد أصوات ضئيلة من أعلى، من قمم الأشجار، ومن السماء

أيضاً، أو صوت فرع ما ينكسر تحت عجلات السيارة، أو حفيف بعض الشجيرات القصيرة، أو بعض نباتات العليق الملتفة بالشوك، والتي كانت تمتد، وتعبر إلى الجانب الآخر من الدرب، وهي تلامس سطح الأرض.

وهكذا تقدمت للأمام قليلاً، في بطء شديد. كان المدق، بين حين وآخر، يتسع قليلاً، عندما كنت أمر تحت إحدى الأشجار الأكبر حجماً نسبياً، حيث لم تكن الحشائش تنمو هناك، ثم كان يستأنف الصعود تارةً أخرى بين الأدغال التي كانت تطبق خياشيمها على السيارة.

أضأت مصابيح السيارة الأمامية، رغم أن الوقت كان نهاراً؛ لأن في بعض المناطق كانت العتمة كثيفة، لدرجة أنني كنت أكاد لا أرى شيئاً.

عبر ثعلب الدرب، وهو يخفض ذيله الطويل أثناء عدوه. التفت برأسه برهة، في اندهاش، قبل أن يختفي من جديد وسط الخضرة.

كان المدق مستمراً في الصعود نحو التل. كانت هناك لحظات تنفتح فيها الخضرة، فتنسل منها أشعة الشمس. رأيت فجأة أمامي جسراً خشبياً صغيراً، ملقى فوق تيار مائي يجري مليئاً بالزبد بين الحجارة، وهو يهدر. اجتزته ببطء، وإطارات السيارة تكاد تسير على حوافه. استأنفت الصعود، رغم أنني كنت لا أعرف إلى أين أذهب، أو إن كان باستطاعتي الرجوع للخلف عبر ذلك الممر الضيق، أو إن كانت هناك في إحدى الجوانب نقطة ما يمكن الانعطاف عندها، والسير عكس الاتجاه.

ثم انقطع الطريق فجأة. كانت بعض الأشجار الكبيرة المتكسرة قد سقطت لأسفل، وكانت تقطع الطريق على نحو مائل. لم يعد ممكناً مواصلة السير بالعربة.

توقفت. ترجلت من السيارة. نظرت حولي، وتأملت تلك

الرقعة الصغيرة من الأرض، التي تتمدد عليها تلك الهياكل الضخمة، التي تقشر لحاؤها. كانت هناك شظايا طويلة مسننة، تبرز من المواضع التي انكسرت فيها، ربما بسبب صاعقة، أو ربما بسبب الريح، أو ربما بسبب ثقلها ذاته.

تخطيتها، وواصلت السير على الأقدام، عبر المدق الذي كان يزداد بعدها ضيقاً. كان يبدو لي أنني لم أكن أبعدُ كثيراً عن التل، إن كان هذا هو حقاً التل الذي كنت أراه من منزلي، ولم أكن أتواجد في مكان مختلف تماماً، وسط تلك الجبال المليئة بالكثير من الوديان والمنحدرات والمضايق.

في الحقيقة، لم أكن بعيداً، بل كنت بالفعل على قمة التل؛ حيث إن الدرب لم يعد يصعد. كنت أسير الآن على أرض مسطحة، لكنني لم أكن أرى شيئاً، لم أكن أرى أي منظر، سوى الأشجار، والخضرة، ونباتات العليق، التي كانت تجتاح الدرب من كل جانب، فتمر خلاله بمجساتها النباتية، وخطاطيفها، وجذورها الصغيرة، وملاقطها.

ولكن كانت لا تزال هناك علامات على وجود درب يمكن أن يؤدي إلى مكان ما، فقد كنت ألمح أجزاءً من أسلاك شائكة مدمرة، وغائصة داخل التربة، وبعض الطوب المحطم باهت اللون، وبعض الأحجار، في إشارة على أنه كان يوجد هناك في وقت ما منزل، أو حظيرة للبهائم.

كنت أواصل السير. لم أكن أرى نورَ النهار، فقد كانت الأدغال التي تعلو التل تخفي السماء تماماً.

فجأة، وأنا لا أزال أسير وسط الخضرة الكثيفة، ظهر أمامي منزل حجري.

توقفت عن السير.

"إنه هنا! عثرت عليه!" قلت لنفسي وقلبي يخفق بشدة. "لا بد أنه ينسل من هنا ذلك الضوء الخافت الذي أراه في الليل من منزلي، عندما أجلس على الكرسي الحديدي، وأنظر من

الناحية الأخرى للمضيق. لا بد أنه ينبعث من مصباح أمام الباب، أو من إحدى نوافذه الصغيرة..."

لكن لم تكن هناك نوافذ ولا أبواب. فقط جدران عمياء كانت تغلقه من كل جانب.

"كيف يمكن هذا؟ ما هذا المنزل؟" كنت أفكر.

فهمت بعد ذلك على الفور أنني كنت أقف في خلفية المنزل، وكان ينبغي عليَّ أن ألف حوله؛ كي أصل للمدخل.

سرت حول المنزلٍ، ووصلت عند واجهته.

كان الباب موجوداً، وكان أيضاً مفتوحاً.

كانٍ يوجد بالداخل طفل، برأس حليق، ويرتدي سروالاً قصيراً، ويقف في مطبخ. كانت تحجبه سحابة من أغطية الفراش، يحملها على ذراعيه الصغيرتين، وكان في طريقه لوضعها في طبق الغسيل.

توقفت من الذهولٍ الشديد.

توقف هو أيضاً، وهو يحمل كومة الأغطية بين ذراعيه الصغيرتين.

تبادلنا النظرات في صمت. كانت عيون الطفلٍ كبيرة، ومستديرة، ومفتوحة على وسعها. كان فمه مفتوحاً، وكانت تبرز منه سنة صغيرة مكسورة.

- «وأنت من تكون؟» قلت في تردد.

لم يجبني.

كان مستمراً في النظر إليَّ بعيونه الكبيرة، المستديرة، المفتوحة على وسعها. كان رأسه الصغير الحليق يظهر بالكاد من وراء غيمة الأغطية.

- «ماذا تفعل؟ هل ستقوم بغسل ملاءات السرير؟» عدت أتحدث في تردد؛ لأنني لم أكن أعرف ماذا أقول.

- «أجل.» أجابني بعد برهة من التردد، بصوته الصغير.

- «لم تقوم بغسل الملاءات؟»

تورد وجهه فجأة.
- «إنني أبول في الفراش!» قال، وهو يطأطئ رأسه من الخجل. «يجب علي دوماً غسل الملاءات، وإلا ستفوح منها رائحة كريهة.»
كنت أواصل النظر إليه، وأنا أحبس أنفاسي.
- «ولكن أتقوم أنت بغسلها؟»
- «أجل.»
- «ألا تغسلها أمك؟» سألته.
- «أمي غير موجودة.»
- «وماذا عن أبيك؟»
- «لا يوجد هو أيضا.»
- «أتعيش هنا بمفردك، وسط الغابة؟» سألته، وأنا مندهش.
«ألا يوجد والداك؟»
- «لا.»
كنت واقفاً على قدمي، بلا حراك، أمام الباب.
- «هل أنت من يبقي الضوء مشتعلاً، في الليل؟» سألته.
ظل صامتاً لبضع لحظات.
- «أجل.» قال مطئطأ رأسه.
- «ولم؟»
- «إنني أخاف من الظلام.»
ظللت أقف ساكناً أمام الباب، بينما عاود الطفل النظر إليّ، وكومة أغطية الفراش تضغط على وجنته.
- «أتريد أن أساعدك؟» حاولت أن أقول شيئاً.
- «لا، أشكرك» أجابني، بصوته الصغير.
لم أعد أعرف ماذا أقول. كان الطفل يقف أمامي، وهو يميل بجسمه، الذي كان توازنه يختل قليلاً؛ بسبب ثقل الأغطية.
- «أيمكنني القيام بشيء من أجلك؟» خطر ببالي أن أسأله مرة أخرى.

- «لا.» أجابني.
كنت أود أن أسأله إن كان بوسعي الدخول، لكنني كنت أفهم إنه من الأفضل ألا أفعل ذلك، خاصة وأن الطفل قد تحرك من مكانه، وأدار لي ظهره بالفعل، وترك كومة الملاءات تسقط في وعاء الغسل المليء بالماء والصابون، وأخذ يغطسها بداخله عدة مرات بيديه الصغيرة.
- «اعذرني، ولكنني في هذه اللحظة لدي الكثير من الأعمال لأقوم بها...» ودّعني بلطف.
استدرت، وشرعت في السير نحو البقعة التي تركت فيها السيارة، فدرت حول المنزل، ثم سلكت ذلك المدق الذي تجتاحه الأدغال، بينما كنت أسمع الحجارة، وأفرع الشجر الصغيرة، وهي تطقطق تحت ثقل خطواتي.
وصلت للمكان الذي كانت توجد فيه تلك الجذوع المتكسرة. تخطيتها، صعدت إلى السيارة. أدرت المحرك.
"ولكن أجل، وجدتها!" كنت أقول لنفسي، وأنا استأنف التحرك ببطء عبر ذلك الدرب الضيق، الذي تتخلله نباتات العليق، التي كانت تضرب الزجاج الأمامي، وأبواب السيارة، بفروعها الطويلة المليئة بالشوك، مثل سياط. "إنه ينبعث من هناك، ذلك الضوء! من تلك النافذة الصغيرة العلوية، الموجودة في الطابق الأول، فوق المطبخ... من الواضح أنه ينجح في أن ينسل عبر الأشجار، من مكان ما، تتباعد فيه الأفرع عن بعضها البعض، وتندر فيها الأوراق. يشعله من الجانب الآخر للمضيق ذلك الطفل، الذي يعيش بمفرده وسط الغابة، ويرتدي سروالاً قصيراً تبرز منه سيقانه الصغيرة النحيفة. ولكن يا للغرابة... لم يعد الأطفال يرتدون هذا النوع من السراويل القصيرة، منذ زمن ليس بقليل!"

الفصل الحادي عشر

لقد حل الليل الآن. مرت بضعة أيام منذ ذهبت إلى هناك. أنظر من هنا إلى ذلك الضوء الخافت، الذي أعرف الآن من أين ينبعث، وأنا جالس وراء درابزين الشرفة الحجري المنخفض، بينما السماء الصافية، التي لا يظهر فيها القمر، تمتلئ بالنجوم، وتتناهى، من مكان لا يبعد كثيراً، أصوات الحيوانات، والطيور الجارحة الليلية، وخوار بعض الخنازير، التي تتنقل وسط الخضرة الكثيفة.

"ربما يرى ذلك الطفل هو أيضاً من هناك، في أعلى التل، ضوأ منزليا، في الليل..." - فكرت في ذلك فجأة - "يراه من الناحية الأخرى للمضيق، وسط كل هذه العتمة الممتدة على مرمى البصر، ووسط هذا العالم المظلم تماماً، مثلما أرى أنا نوره من هنا. نسيت أن أسأله إن كان يراه..."

في هذا الصباح، أردت الذهاب مجدداً عند ذلك الرجل الألباني، الذي ينشغل بمسألة الكائنات الفضائية؛ كي أخبره بأنني قد اكتشفت من أين ينبعث ذلك الضوء الخافت، وأن الأمر لا يتعلق بالكائنات الفضائية، خاصةً وأنه كان يجب عليَّ أن أذهب؛ كي أتزود بالوقود، في بلدة ليست ببعيدة عن بلدته، حيث توجد مضخة بنزين أمام فناء، ورجل مسن يعذب

باستمرار أسنانه السوداء القليلة بعصا أيس كريم خشبية. كان إذا رأى أحدهم قد توقف أمام المضخة، يترك مزرعة الكروم حيث كان يعمل، ويأتي ليزوده بالوقود.

رويت له كل شيء، عندما توقف عن إصدار تلك الأصوات الحلقية، وتلك الصيحات المفاجئة، بعد أن رآني أهبط من الكومة الصغيرة المليئة بالروث، والبرك كريهة الرائحة.

- «أرأيـــت؟» قلت لـه. «لا يتعلق الأمـر بالكائنات الفضائية، أو بالفضائيين، أو بالتنقلات في الفراغ الفوقي، أو المنخفضات... إنه طفلٌ، يتعلق الأمر ببساطة بطفل...»

كان ينظر لي متحيراً. ولكن بسبب شكل فمه الغريب، كان يبدو كأنه يبتسم.

- «آه... طفل... حضرتك تقول إنه طفل؟»

- «أجل، بالتأكيد، طفل!»

هز رأسه مرتين أو ثلاث مرات، فاهتزت أيضاً الشعرات المدهونة، والمستقيمة مثل عيدان الاسباجيتي، والتي تطوق أسفل رأسه، وتبرز منها أذناه الكبيرتان البارزتان.

- «طفل يعيشٍ بمفردهٍ في الغابة... والأمر لا يثير دهشتك؟ أيبدو لك هذا أمراً طبيعياً؟»

- «نعم... أو بالأحرى لا. لقد أثـار الأمـر دهشتي أنا أيضاً.»

- «تُرى من يكون هذا الطفل؟» قال، وهو لا يزال يهزٍ رأسه، وتلك الابتسامة تنطبع على وجهه. «هل ينتمي حقاً لهذا العالم؟»

- «ولكنني أنا رأيته! إنه طفل، أؤكد لك ذلك!»

- «خذ بالك لإن الكائنات الفضائية ليسوا كما يصورونهم في الأفلام! بوسعهم أيضاً أن يتخذوا شكلاً بشرياً تماماً. ولا يمكن تمييزهم عن الآخرين. من يدري كم يوجد منهم بالفعل هنا، في وسطنا!»

نظرت إليه. كان يبتسم لي. لكنني لا أعرف إن كان حقاً يبتسم لي. كانت تتناهى إلينا أصواتٍ الأجراس المعلقة في رقاب الماعز، التي لم تكن تبعد كثيراً، والكلب يثب لأعلى، وينبح.

رغم أن الوقت تأخر كثيراً، إلا أنني أظل جالساً هناك؛ كي أتطلع إلى ذلك الضوء الخافت، الذي يتلألأ على التلة الأخرى. الليلة صافية، والنجوم تداهم من كل ناحية هذا الفضاء الشاسع العميق، الذي يمتد فوقي. شدت سحاب سترتي الثقيلة لأعلى، وغطيت رأسي بالقلنسوة؛ لأنه عندما يحل الليل، تبدأ البرودة تسري في الجو، في هذا المكان المحاط بالخضرة والأدغال من كل جانب. وكانت ساقي أيضاً تبدو مخدرة الحس قليلاً؛ لأنني أجلس هنا منذ وقت طويل؛ كي أشاهد الضوء الخافت، في الوقت ذاته الذي قد يكون فيه ذلك الطفل نائماً بمفرده، في منزله الحجري الصغير وسط الغابة.

أنهض من على الكرسي الحديدي. أمدد ساقي كي يفك خدرها. انتصف الليل، لكنني لا أشعر بالرغبة في النعاس.

أخرج من البوابة الصغيرة، أغلقها ورائي بطريقة آلية، رغم أنه لا يوجد شخص آخر هنا، وبوسعي تركها مفتوحة. أسير نحو المقبرة الصغيرة، التي تقبع في نهاية المنحدر، بكل تلك الشموع، التي تتلألأ في الليل، بأنوارها الضاربة إلى الحمرة. أعبر البلدة، وأستمر في السير عبر الدرب الصغير المنحدر، وأنا أسمع فقط وقع خطواتي، تحت هذا الفضاء الشاسع، المعتم، المنسي، والمليء بمجموعات كبيرة من النجوم. في بعض الليالي، في وقت معين، والذي يتصادف أنه يحين الآن، تظهر على جوانب الدرب الصغير مئات، بل آلاف من الحباحب. تتدفق بأعداد كبيرة وسط الخضرة الكثيفة المعتمة، بأنوارها الخافتة العديدة، والتي تضيء، وتنطفئ على نحو متقطع، فيبدو الأمر كأنني أسير في عالم

مسحور. أنتبه كي لا أطأ بقدمي تلك الحباحب، التي تعبر الدرب المعتم، وهي تكاد تلامس الأرض في طيرانها، وكي لا أضرب بساقي وذراعي الحباحب الأخرى، التي تطوف أمامي، كأنها ترشدني إلى الطريق. في بعض الأحيان، أمسك واحدة من تلك الحباحب في راحة يدي، وأتأمل عن قرب شديد جسدها الصغير المسكين، الذين يتغير شكله؛ بسبب ذلك الضوء الذي ينسل من أعضائه الرخوة، ومن بين أحشائه الصغيرة.

- «آه... ألا زلتم هنا! ألا زلتم موجودين!» حاولت أن أقول شيئاً وسط كل تلك العتمة، التي تعج بالأنوار. «لم تُهلككم إذن حبات البَرَد الكبيرة! أين اختبأتم، عندما كانت تهطل من السماء تلك القطع الجليدية، التي كانت تحطم كل شيء، ولم تكن تتوقف أمام أي شيء، ولا حتى أمام أجمل الزهور، وأطيبها عطراً! أينٍ تختبئون أثناء النهار، عندما لا يراكم أحد؟ ألديكم أنتم أيضاً جحور صغيرة، مخابئ صغيرة تحت الأرض، في مكان ما، حيث تختبئون فيها عندما يكون هناك ضوء، عندما تمتلأ السماء بالجليد! ولكن كيف تضيئون هكذا؟ ماذا يوجد بداخل أجسادكم الضئيلة البائسة تلك؟ كيف يكون بوسعكم أن تضيئوا وتغيروا أشكالكم هكذا؛ حتى تبعثوا مثل هذا الضوء، الذي يُرى أيضاً من مسافة بعيدة جداً، وحتى تشعلوه، وتطفئوه باستمرار، ساعات وساعات؟ أجل أعرف، إنه نداء للتزاوج. ولكن لماذا أنتم فقط، من بين كل الحشرات، من ابتكرتم هذه الوسيلة للاجتذاب؟ كيف فعلتم ذلك؟ من أين انبعثت فيكم تلك البدعة الصغيرة المستميتة، وذلك الضوء الخافت؟ ولأي سبب ذلك، إن كنتم تختفون بعدها على الفور، وتهلكون، وإن كان لا يعود أحد يراكم بقية العام، فأنتم تعيشون بضعة أسابيع فقط، تخرجون من مكان ما، وتأخذون في الطيران بالآلاف، فتجعلون عتمة هذا الليل

الذي يحيط بنا تشع إشراقاً وحيوية؟ لم؟ لأي سبب ابتدعتم هذا الأمر العجيب؟ لم تجتذبون أحدكم الآخر على هذا النحو، في الظلام، في لحظات قليلة تكونون فيها في عالم لا ترونه؟ كي تستمروا في التناسل؟ ولكن لماذا؟ ألكي تتمكن كائنات أخرى مثلكم من الاستمرار في التناسل والطيران بضعة أسابيع، بضع لحظات، في هذا الظلام الهائل، الذي يحيط بنا؟»

لكنهم لا يعرفون الإجابة. حتى إن كانوا يعرفونها، فهم لا يجيبونني.

الفصل الثاني عشر

ما زالت الأمطار تهطل بغزارة. لا يمكن الخروج من المنزل. انتهزت هذه الفرصة كي أغسل بعض الملابس الداخلية التي تكدست داخل السلة، رغم أنه لم يكن يمكن نشرها بالخارج. سأعلقها بالمشابك على مشجب الغسيل، الذي يوجد هنا في المنزل.

أذهب لأقطع بعض الخشب في البدروم. أشعل المدفأة. عندما تتأجج النار فيها، أنقل الملابس الداخلية، وأضعها أمامها، حتى تجف على نحو أسرع. لكنني لا أقربها أكثر من اللازم؛ بسبب كثرة الشرارات المتطايرة من قطع الحطب المحترقة.

أنظر إلى النار، وهي تلتف حول قطع الحطب، فتغير لونها باستمرار، وأنا جالس على كرسي صغير أرجله مقطوعة بالمنشار. تتأجج طويلاً، ثم تثور فجأة باعثة العديد من الشرارات الكبيرة، وتصعد لأعلى، فتذهب لتلامس شظايا الحطب، ولحاء الشجر الموضوعة في القمة. من الخارج، يمكن رؤيةِ مدخنة مدفأتي، وهي المدخنة الوحيدة التي بدأت تنفث دخاناً، من بين تلك المدخنات، التي تبقت فوق أسطح هذه المنازل المهجورة والخربة، هذا إن كان لا يزال يوجد

أحد يمكنه رؤيتها.

أطبخ قليلاً من المعكرونة. أقوم بتصفيتها من الماء. أبدأ في تناولها، وأنا جالس على رأس المائدة الصغيرة الشاغرة، أمام باب الشرفة الزجاجي المفتوح. أشاهد المطر، الذي لا يزال يهطل بكثافة على العشب المنبسط أمامي.

مر قليل من الوقت. غسلت الأطباق، ونظفت بخرقة من القماش سطح الموقد، الذي كان مليئاً بالبقع. فصلت الثلاجة عن الكهرباء؛ حتى أذيب رقائق الثلج المتكونة فيها، وأزلتها بواسطة مكشطة. جففت بركة المياه الصغيرة، التي تكونت أمام الثلاجة. أعدت وضع الأطعمة بداخلها. أزلت بالمبيض البقع المتعفنة، التي تكونت على الجدران. ذهبت لألقي القمامة في داخل حفرة.

منذ قليل، عندما كنت أقوم بعمل هذه الأشياء، سمعت دوياً مفاجئاً يتناهى من الدرب الصغير. هرعت للخارج؛ كي أرى، حيث إنه لا يمر أحد من هنا أبداً.

توقفت أمام الباب.

كانت هناك مجموعة من الخيالة يجتازون الدرب الصغير، وهم يمتطون خيولهم الطويلة، وقد غطوا أجسامهم بالكامل بمعاطف من السيلوفان الشفاف؛ حتى يحموا أنفسهم من المطر.

حييتهم بإشارة من يدي؛ لأنهم كانوا أول أشخاص أراهم منذ مقدمي إلى هنا. أجابوني هم أيضاً في صمت، من أعلى، بإشارة من رؤوسهم المغطاة بقلنسوات المعاطف الواقية، التي يقطر منها ماء المطر، بينما كانت الخيول مستمرة في المضي معاً في إيقاع متناغم، وهي تدق حجارة الدرب بحوافرها. كانت ثيابهم تبدو واضحة تماماً تحت معاطفهم الشفافة. كانت توجد وسطهم أيضاً امرأة، أو على ما يبدو، فتاة صغيرة، ترتدي سروالاً من الجينز، وحذاءً طويل الرقبة.

عندما مروا جميعاً، أطللت من البوابة الصغيرة، فوجدتهم قد توقفوا أمام الحوضين الحجريين. مدت الخيل خطمها في الماء، وأخذت تشرب. كانت أحجامها تبدو ضخمة في هذه المساحة الضئيلة الضيقة من الدرب الصغير.

استأنفوا بعد ذلك السير. مروا أسفل القبة الكبيرة، وحينئذ اشتد دوي حوافر الخيل أكثر، بينما كانوا يعبرون البلدة المهجورة، ثم يتوارون.

"هناك معرض للخيول" قلت لنفسي. "في بلدة بالأسفل. يبدو لي أنهم في كل عام يذهبون إلى هناك، وهم يمتطون خيولهم، ولعلهم أرادوا أن يسلكوا الطريق الأطول، وسط الأدغال، والبلدات المهجورة، وعبر دروب لم يروها من قبل..."

كان قلبي يخفق بقوة. اضطررت للخروج من المنزل، والسير بخطوات واسعة، لمدة طويلة، رغم أنها كانت تمطر بشدة، واحتميت قدر الإمكان بمظلة قديمة تبرز منها أضلاعها للخارج. سلكت الدرب، الذي أتى منه الخيالة. كانت توجد آثار الحوافر العميقة في الأرضٍ، وفي الوحل، وقد امتلأت الآن بالماء. وكانت هناك أيضاً برك، وجداول مائية صغيرة تكونت منذ قليل بسبب المطر القوي، الذي يتدفق من الجبال. كانت هناك أيضاً مجارٍ مائية صغيرة تجري في وسط الطريق، مكونة حجاباً شفافاً من الأمواج، داخل أخاديد حفرت منذ قليل، أو في أخاديد أخرى تبدو أنها آثار لإطارات دراجة بخارية من طراز موتوكروس، لا أدري من كان يقودها، وفي أي وقت؛ لأنني لم أسمع دوي محركات قط، ولا حتى من مسافة بعيدة.

"إنها إذن الطريقة التي تتكون بها المجاري، والتيارات المائية، والأنهارٍ..." كنت أقول في انفعال. "كميات من الماء تكبر شيئاً فشيئاً، وبالقوة التي تتزايد بتقدمها للأمام، تجتذب،

ثم تبتلع كميات أخرى من الماء أقل حجماً، تهبط عبر الجبل المنحدر، بينما تضيع كميات أخرى من المياه هنا و هناك، دون أن يكون لديها القوة؛ كي تتحول إلى مجار، وتيارات مائية، وأنهار. غدران تبدو في مظهرها متشابهة، تكونت على هذا النحو، في مكان ما مجهول، يقبع خارج العالم، حيث لا يراها أحد، ثم بعد ذلك تخرج إلى النور، عندما تصير بالفعل كبيرة، ومندفعة، فتحفر مجراها في مضايق الجبال، وفي الوديان، ثم في السهول الكبيرة، ولا أحد يمكنه بعد ذلك أن يوقفها..."

الفصل الثالث عشر

عدت إلى ذلك الطفل. عندما وصلت إلى هناك، بعد أن اجتزت بالسيارة، في بطء شديد، ذلك المدق الضيق، الكامن تحت الخضرة، وعبرت الجسر الخشبي الصغير، الذي كان يتأرجح تحت وطأة السيارة، ثم اجتزت بعد ذلك جذوع الشجر المتكسرة، ودرت حول الجدران العمياء لمؤخرة ذلك المنزل الحجري الصغير، الذي يبدو أكبر قليلاً من أطلال مبنى، وربما كان في وقت ما حظيرة يعلوها مخزن للتبن، مثل تقريباً كل المنازل الموجودة في هذه النواحي، كان الطفل يغسل الأطباق، وهو يقف على قدميه فوق صندوق صغير مقلوب؛ حتى يتمكن من الوصول بيديه إلى صنبور الحوض.

عندما سمع وقع خطواتي أمام الباب، التفت نحوي برأسه الصغير الحليق، ورمقني بعيونه المستديرة، وفمه المفتوح تبرز منه السنة الصغيرة المكسورة. ثم استدار من جديد، واستأنف غسل الصحون.

- «أترغب فِي أن أساعدك؟» سألته؛ لكسر الجليد بيننا.

- «لا، شكراً، إنني معتاد على غسلها» أجابني بلطف.

كنت أقف على الباب؛ لأنني لم أكن أدري إن كان يمكنني

الدخول، وكنت أنظر إلى يدي الطفل الصغيرتين، اللتين كانتا تغسلان الصحون، وأدوات تناول الطعام في الحوض، فتمران بمهارة داخل الفجوات المليئة بالصابون بين أسنان شوك الطعامٍ، وتشطفان الصحون حتى يشعر بأنها قد صارت ملساء تماماً، وأنها تحدث ذلك الصرير الخافت عندما يمرر عليها إصبعه، ورأسه الحليق محني تماماً للأمام، دون أن يهتم لوجودي.

نظرت حولي. كان هناك غطاء سرير منشور ليجف، علىٍ حبل مشدود بين مذراتين، مع بعض الملابس الأصغر حجما: صدريات، وسراويل داخلية، وجوارب. كان يوجد هناك، على مسافة قصيرة من هنا، منزلٍ صغير آخر لم ألاحظه فى المرة الأولى، وكان أقل ارتفاعاً، ونصفه محطم، وشبه مخفي بين الأشجار.

- «أيوجد أحد بداخله؟» سألت الطفل في تردد، وأنا أشير إلى ذلك المنزل الصغير.

- «لا» أجابني.

انتهى أخيراً من غسل الصحون، وأخذ في تجفيفها، صحناً تلو الآخر، بقطعة من القماش، قبل أن يصُفها في المطْبَقيَّة، فكان يقف على أطراف أصابعه؛ كي يتمكن من الوصول إلى هناك بيديه الصغيرتين.

- «ألا يوجد أحد يساعدك؟» سألته، وأنا لا أزال واقفاً أمام الباب.

- «لا» أجابني.

- «وهل تعد لنفسك الطعام أيضاً؟»

- «أجل، بالتأكيد!»

- «ماذا تطبخ؟»

- «أوه... أطبخ المعكرونة، وأقطع الخضروات، وأبشر الجبن...»

كنت أنظر إليه، وأظل أتأمله، بينما كان هو يستمر في وضع الأطباق بالأعلى، ويبحث لكل طبق منها عن المجرى الذي سيدخله فيه، ويشرئب بأقصى ما بوسعه بجسده الصغير، وهو يقف على الصندوق الصغير، ورأسه الحليق تحاول أن تصل لأعلى مكان ممكنٍ؛ كي يتمكن من الرؤية.

- «ولكن أنت دوماً بمفردك!» لم أستطع أن أمنع نفسي من قول ذلك.

لم يجبني. كان هناك العديد من الأطباق، مما يشير إلى أنه لم يكن يغسلها منذ فترة طويلة. كان مستمراً في وضعها بمكانها، وهو يركز كل إنتباهه. كان يدخل أدوات تناول الطعام في حاويتها، مقسماً الملاعق، والشوك، والسكاكين، كلا على حدة.

"أتراه يكون حقاً مخلوقاً ينتمي لهذا العالم؟" كنت أقول لنفسي.

انتهى الطفل من وضع الأطباق. نزل من فوق الصندوق الصغير. أخذ يجفف يديه، وهو يتأملهما بانتباه شديد أثناء ذلك، فكان يمرر قطعة القماش جيداً بين كل إصبع وأخرى.

- «وماذا عن شعرك؟» خطر ببالي أن أسأله. «من يقص لك شعرك؟»

- «أقصه أنا لنفسي!» أجابني.

- «آه، أهذا صحيح؟ وكيف تفعل ذلك؟»

- «بواسطة ماكينة الحلاقة الكهربائية!»

- «غير معقول! لا أصدق هذا!»

أخذته الحماسة، ورأيته يستدير، ثم يهرع نحو السلم الخشبي، الذي يؤدي إلى الطابق الأول، ودرجاته عالية جداً، فكان يصعد بصعوبة بساقيه الصغيرتين.

كنت أسمع وقع أقدامه، التي كانت تجري على أرضية الطابق الأول الخشبية.

نزل، وهو يقبض بيده الصغيرة على شيء أسود اللون.
اقترب من الباب، وأراني إياه.
انحنيت حتى أراه، دون أن أجتاز الباب؛ لأنه لم يدْعَني لأفعل ذلك.
أظهر لي الطفل في يده الصغيرة المفتوحة ماكينة حلاقة كهربائية مستطيلة الشكل، وبرأس واحد فقط.
- «ولكن لم يعد هذا النوع من ماكينات الحلاقة يستخدم منذ زمن طويل! كيف حصلت عليها؟»
- «وجدتها هنا» أجابني.
نظرت إليه عن قرب شديد، على بعد متر، أو أكثر من ذلك قليلاً، حيثٍ إنه كان قد اقترب من البابٍ، وتقدمت أنا أيضاً للأمام قليلاً؛ كي أرى ماكينة الحلاقة جيداً.
- «وكيف تقوم بقصه؟» سألته.
- «هكذا!» أجابني وقد بدأ يمرر ماكينة الحلاقة المطفأة حول رأسه الصغير، وهو يقلد بصوته دوي المحرك الصغير.
توقف بعد ذلك. خطا فجأة خطوة للوراء. وأنا أيضاً خطوت خطوة للوراءٍ، دون أن أدري سبب ذلك.
مكثت قليلاً دون أن أتفوه بشيء، بينما كان الطفل يجري مرة أخرى إلى الطابق الأول؛ كي يعيد ماكينة الحلاقة لمكانها.
أخذت أجيل النظر في المكان من حولي، في انتظار أن ينزل. كانت توجد كرة صغيرة ملونة، أسفل المقعد الطويل المكسور، الموجود بجوار الباب.
"يبدو أنه يلعب!" قلت لنفسي. "من حين لآخر، بمفرده..."
نزل الطفل. لكنه لم يأت مرة أخرى نحو الباب. أخذ يفتش بيديه الاثنتين داخل حقيبة مدرسية. أخرج منها كراسات،

وقلمي حبر، وقلم رصاص، ومبراة، وممحاتين. وضع كل شيء على الطاولة، وجلس أمامها.

فتح إحدى الكراسات.

- «ماذا تفعل؟» سألته، من الجانب الآخر للباب.

- «أؤدي الواجبات!» أجابني.

كنت أرمقه في ذهول تام.

- «لماذا؟ أتذهب أيضاً إلى المدرسة؟»

- «بالتأكيد!» أجاب، وهو يفتح دفتراً آخراً. بدأ يحرك القلم الرصاص على إحدى الكراسات، دون أن يعيرني أي اهتمام.

لم أكن أدري ماذا أقول، أو ماذا أفعل.

بدأ الطفل يبري القلم الرصاص، وهو يحدق في فتحة المبراة، التي كان يخرج منها مسحوق الرصاص؛ حتى يتوقف قبل أن ينكسر سن القلم.

- «أيمكنني الدخول؟» جربت أن أسأله.

- «عذراً» أجابني بصوته الصغير، «ولكنني الآن يجب أن أؤدي الواجبات.»

الفصل الرابع عشر

وهكذا صرت أذهب إلى هناك، كل يومين أو ثلاثة، فأجلس على المقعد الطويل المكسور بجوار الباب؛ حتى لا أظل واقفاً على قدمي طوال الوقت، ونتحدث، بينما يكون الطفل منهمكاً في أعماله، في غسل الملابس، وفي تنظيف الصحون، أو الأرضية، بقطعة قماش يدفعها للأمام وللخلف بواسطة عصا مكنسة مكسورة.

- «إذن فأنت تذهب إلى المدرسة...» أقول بشكل عابر؛ كي أبدأ الحديث.

- «أجل، بالتأكيد!» يجيبني، وهو يواصل مسح أرضية المطبخ بقطعة القماش.

- «ولكن إلى أي مدرسة تذهب؟ لأنني في بعض الأحيان آتي إلى هنا في الصباح وأجدك؟»

- «إلى المدرسة المسائية.»

- «أهناك مدرسة مسائية في هذه النواحي؟»

- «أجل. توجد بالأسفل في البلدة.»

- «وتقطع الطريق كله سيراً على الأقدام، بمفردك، في الغابة؟»

- «إنني مضطر لذلك!»

- «أتريد أن أصحبك؟»
- «لا، شكراً، إنني معتاد على ذلك.»
أظل صامتاً. أنظر إليه، وأنا أشرئب برأسي من المقعد الطويل؛ كي أتمكن من رؤيته داخل المطبخ، بينما الطفل يواصل دفع ممسحته الارتجالية، وقد احمر وجهه من المجهود الذي يبذله، وكان يتوقف من حين لآخر؛ كي يجيب على أسئلتي.
- «وماذا عن الضوء؟» سألته مرة أخرى، بعد برهة من الوقت. «متى تشعل الضوء؟ لِم أراه يضيء دوماً في الساعة ذاتها، من المكان الذي يوجد فيه منزلي؟»
- «إنني أشعله بمجرد عودتي من المدرسة المسائية.»
أمكث مرة أخرى صامتاً. يمكنني أن أسمع أيضاً من مكان جلوسي الصوت الخافت لأنفاسه اللاهثة؛ بسبب الجهد الذي يبذله.
- «وماذا تفعل حيال الحيوانات الضارية؟» خطر ببالي أن أسأله مجدداً، بعد برهة. «إنك في وسط الغابة... فكيف تبعد عنك الحيوانات الضارية؟»
توقف لبضع لحظات، ثم دنا من الباب؛ حتى يجيبني.
- «أدق أغطية الأواني!» قال لي، وهو يرمقني بعيونه المستديرة. «آخذ غطاءين من أغطية الأواني، وأدق أحدهما في الآخر بقوة؛ كي أخيفها، وأبعدها!»
أبتسمُ.
- «إنني أفعل ذلك أنا أيضاً، في بعض الأحيان...» أجيبه. «في الليل، عندما أسمع أصواتها قريباً جداً من المنزل...»
أمكث مجدداً على هذا النحو. أسمع الطفل، وقد توقف عن مسح الأرضية، داخل المطبخ، وذهب ليشطف قطعة القماش في الدلو، وأوقف عصا المكنسة بجوار الحوض.
- «أتريد أن أساعدك في أداء الواجبات؟» سألته، عندما

رأيت أنه قد أخرج الكراسات من الحقيبة المدرسية، وذهب ليجلس على الطاولة.

- «لا شكراً، يجب أن أؤديها أنا.»

لم يتفوه بأي شيء، لبرهة من الوقت. مكثت أنا أيضاً صامتاً؛ كي لا أزعجه. أراه من موضع جلوسي، برأسه الصغير الحليق تماماً، والمنحني على الكراسة، وطرف لسانه يبرز من بين أسنانه من شدة التركيز. أسمع فقط، في المكان من حولي، طنين الحشرات التي ترتمي في عفن الزهور، الذي تفوح رائحته.

"يا للغرابة... يا للغرابة..." خطر على بالي فجأة. "لم يعد يُستخدم الآن ذلك النوع من حقائب اليد المدرسية، على ما يبدو لي، فالأطفال يذهبون إلى المدرسة بحقائب تُحمل على الظهر..."

عندما آخذ السيارة مرة أخرى؛ لأعود إلى المنزل، وأكون بالفعل خارج الغابة، وأكون قد سلكت الطريق المسفلت المنحدر، الذي يصل حتى نهاية المضيق، حيث تكون درجة الانحدار قليلة، وتوجد بعض الحقول التي تم حصدها، يتصادف أن أرى، في هذه الأيام، رجالاً يرتدون بدلات العمال، ويحرقون القش بواسطة لهب الأوكسيهيدروجين. يسيرون عبر أكوام القش المتبقية، شاهرين المواسير الطويلة، التي يخرج منها ذلك اللهب الأزرق مصدراً فحيحاً. تتصاعد رائحة الدخان النفّاذة من الأكوام التي تم حرقها.

لست متأكداً من ذلك، ولكن يبدو لي أنني ألاحظ شيئاً غريباً في سلوك طيورٍ السنونو. نعم، هي مستمرة كسابق عهدها في الطيران سريعاً مثل السهم الخاطف في السماء، أثناء جلوسي على الكرسي الحديدي، في آخر ضوء للنهار. ومستمرة أيضاً في الانقضاض على الحشرات، التي تطاردها، حتى تكاد تلامس صدغي، وهي تطير، بمناقيرها المفتوحة على

وسعها، وصياحها، ثم تعاود بعد ذلك الصعود في بعض المناطق الأكثر ارتفاعاً، حيث توجد طيور سنونو أخرى كثيرة تطير هائجة، ولا أفهم كيف تقترب بشدة من بعضها البعض، وهي تطير بمثل هذه السرعة، دون أن يحدث بينها تصادمٍ أبداً. ولكن، في الوقت ذاته، يبدو لي أنني أميز أمراً مختلفاً في سلوكها، رغم أنها مستمرة في ممارسة حياتها الجنونية المعتادة، دون أن تُظهر ذلك. كأنها هنا، وفي الوقت ذاته لم تعد موجودة هنا. هناك شيء ما مختلف، بشكل غير ملحوظ، في الطريقة التي تملأ بها السماء بالصياح، وفي تلامسها أثناء الطيران، كأنها تفعل أيضاً شيئاً آخر، وكأنها تقول أيضاً شيئاً آخر.

- «ماذا تدبرون؟» صحت منذ قليل.

- «ألا ترى؟ إننا نطير!» أجابتني الطيور.

- «أجل، أجل، إنني أرى هذا!» أصيح مرة أخرى. «ولكنكم تفعلون أيضاً شيئاً آخر! إنكم تطيرون بطريقة لم أرها من قبل...»

- «إننا نطير دوماً بطريقة لم ترِها من قبل!»

نظرت إليهم مرة أخرى، برهة من الوقت، دون أن أتفوه بكلمة. كانت السماء كلها تعج بتلك السهام المجنونة، التي على العكس لا تطير مثل سهام، وتسلب، وتتدافع، وتعكس فجأة اتجاهها، وتصيح.

- «كيف يمكن، من الناحية الطبية، وصف طبيعتكم مفرطة الحركة، وحالتكم الذهنية: عصاب حركي، أم هيستيريا، أم شيزوفرانيا...؟» صحت مجدداً في طائر منهم نزل؛ ليحلق على مستوى أكثر انخفاضاً من الطيور الأخرى.

- «ولكن، فلتلتقط هذا!» أجابني.

في اللحظة التالية أصابتني في جبيني دفقة انطلقت من الثقب الصغير النابض بين ريش ذلك الجسد الصغير المجنون

أثناء طيرانه.

تزداد السماء إعتاماً. فيما بعد، وعلى حين فجأة، من الجهة المقابلة للمضيق، على امتداد خط التل الآخر، ينير ذلك الضوء الخافت في الظلام.

"ها قد عاد من المدرسة..." أقول لنفسي. "لقد دخل تواً في المنزل، وجرى على الفور؛ ليشعل الضوء، بعد أن سار عبر الغابة، في الظلام، بمفرده..."

الفصل الخامس عشر

لم أكن مخطئاً. يحدث الآن أمر هائل في السماء، داخل تلك العقول الصغيرة القابعة في أجساد تزن بضع جرامات، وتعبر الفضاء مثل سهام، وسط كل ذلك الحشد من الأجنحة، التي تشيع الفوضى في الجو.

تستعد طيور السنونو الآن للهجرة.

تستمر ظاهرياً في ممارسة حياتها المعتادة. تطير كالعادة بسرعة خرقاء، وهي تطلق الصيحات. تشق عنان السماء بمناقير مفتوحة على وسعها؛ كي تبتلع حفنة من الحشرات. تخرج كالعادة من أعشاشها العديدة غير المرئية، والعلوية، في المزاريب الصدئة، والمثقوبة، وفي الثقوب بين الحجارة، وعلى الأسطح الخربة، في هذه البلدة التي استولت عليها، والتي تقبع خارج العالم، تهبط لأسفل طيور السنونو البالغة، وتلك الأفراخ التي خرجت من البيضة منذ وقت قليل، وتتعلم الآن طيرانها الأول القصير الجنوني؛ لتطير على مستوى منخفض، كالعادة، على مقربة شديدة من ماء الأحواض، معرضة نفسها لخطر أن تتهشم على زواياها الحجرية. ولكن، رغم ذلك... هناك هياج واستثارة من نوع جديد، جنون أشد يشوب سلوكها. تتلاقى في أماكن عالية جدا في السماء، ويزداد

صياحها قوة. تُرى ماذا تقول لبعضها البعض؟ تُرى ماذا يحدث الآن بين تلك الغمائم، التي تعج بهذه الأجساد الصغيرة الطائرة؟ ما هي الشرارة التي أشعلت فتيل كل شيء؟ كيف تُكوّن تجمعاتها الأولى هناك في الفضاء، في رحلات الطيران الأولى، التي تزداد ازدحاماً، وتشرع في الدوران فوق هذه الأطلال الخالية من السكان، والتي هي على وشك هجرها، وربما دون حتى أن تعرف هي ذلك؟ تنقض في أعداد متزايدة على الأحواض، كأنها تخزن المياه، قبل الرحلة شديدة الطول المتجهة لمكان مجهول، فتخرج من مخابئها في القبة الكبيرة المنخفضة، وفي منعطف الطريق الصغير، مثل سهام، وتلقي بنفسها على مقربة شديدة من الماء، ومناقيرها مفتوحة على وسعها، وهي تصيح، وترفرف فوق سطحه الراكد بأطراف أجنحتها الطويلة الهائجة. من يدري إن كانت تعرف إلى أين ستذهب؟ إن كان طائر واحد منها على الأقل يعرف ذلك، ويستطيع أن يبلغ به الطيور الأخرى، أم إن كانت تبتدع الرحلة، عندما تكون قد شرعتٍ فيها بالفعل، وهي تطير في تلك الدوائر الأولى الكبيرة جداً، والمليئة بالعديد من العقول الصغيرة، التي تحويها أجساد تزن بضع جرامات، وتعبر سماء العالم من كل الأنحاء، وتكون تجمعاتها شديدة الكثافة، حتى أنني لا أفهم كيف يسعها التحرك هناك بداخلها، وسط كل هذه الأجنحة؟

تتوقف بأعداد متزايدة على أركان البيوت القديمة المتداعية، وعلى حواف الأسطح، وفوق بعض الأسلاك القديمة المتبقية. ثم تعاود الطيران من جديد. تبدو كأنها تستأنف الحياة المعتادة كل يوم، وتبدو كأنه لا شيء تغير، وكأنه ليس منتظراً أي رحيل، ومن يدري لأي سبب تأجل، ربما بسبب بعض التغييرات غير الملحوظة في الحرارة، وتركيبة الهواء، والتي كانت تلك الطيور هي فقط من أدركها في الحال، حيث

إنها تعيش هناك بالأعلى، في السماء. ربما يبدو أن الوقت لا يزال مبكراً على الرحيل. لا زلنا في الصيف. ولكن على العكس، في اليوم التالي، استؤنف كل هذا الجنون العجيب. تشكلت أسراب جديدة أكبر حجماً، وبدأت مرة أخرى في الطيران، وكان بعضها ينسل منها كالخيوط في السماء؛ كي يجذب إليها طيور السنونو الأخرى، التي لا تزال بمفردها. ولكنها على الفور بعدٍ ذلك تتشتت من جديد، وفي بضع ثوان يأخذ كل طائر اتجاهاً مختلفاً. ولكن في الأعلى، في مستوى أكثر علواً، تتشكل من جديد أسراب أخرى، ثم المزيد والمزيد منها، حتى تُرى فجأة الغيوم الأولى الكبيرة، والهائلة، التي تعج بطيور النورس الصائحة، التي تنطلق نحو تلك الرحلة الجنونية، التي لا تعرف حتى وجهتها المقصودة.

لقد أدركتْ قبل الآخرين جميعهم، وهي هناك في الأعلى، أن هناك شيئاً ما على الأرض قد تغير، وأنه يحدث الآن أمر هائل، وأن الصيف يوشك على الانتهاء، وأنه خلال وقت قليل لن تظل السماء والأرض على حالهما، سيبدأ الخريف، ثم الشتاء.

في هذا الصباح، عندما ذهبت لآخذ السيارة من الحظيرة، رأيت سحابة من طيور النورس تخيم على كل شيء، على الأسلاك القليلة، وعلى الأسطح، وعلى أطراف أعواد القصب الجافة، التي لا تزال مغروسة في الأراضي، التي كانت توجد فيها في وقت ما بساتين، كأنها احتشدت جميعها هناك؛ كي تحييني، قبل أن تشرع في رحلة طيرانها.

نزلت في بطء؛ كي أتأملها قليلاً. وصلت حتى البلدة. سرت عبر دروبها الصغيرة، دون أن أفكر في أي شيء. وصلت إلى المتجر. لم يكن فيه أحد هذه المرة، فقط تلك العجوز، التي كانت تنقل أكياس البذور. أخذت شيئاً من المعكرونة، وقليلاً من البطاطس، وبعض العلب الصغيرة، فاخترت من

بينها تلك التي يبدو غطاؤها أقل صدأً. كنت أغطي أنفي من حين لآخر بيدي؛ بسبب الرائحة الكريهة، فقد خرجت من مكان ما قطط سمينة، متخمة بالطعام الذي تقدمه لها العجوز، عندما سمعت وقع أقدامي في المتجر الشاغر. بدأت تتمسح في ساقيّ ببطونها الصلبة، والمنتفخة مثل البالون. في اللحظة التي كنت أدفع فيها الحساب، وأضع ما أشتريته في كيس صغير من البلاستيك أحضرته معي من المنزل، جربت أن أسأل المرأة العجوز بشكل عابر إن كانت توجد مدرسة في تلك البلدة.

- «أجل، موجودة!» أجابتني، بلهجة محلية.

- «مدرسة مسائية...» أردفت بعد برهة، بينما كنت آخذ باقي الحساب.

أصابتها الدهشة.

- «ماهي المدرسة المسائية؟» سألتني.

- «إنها المدرسة التي يذهب إليها الأطفال في المساء، بدلاً من النهار!»

- «لم أعرف هذا النوع من المدارس قط!» أجابت. «لقد عشتُ دوماً هنا، ولم أعرف شيئاً كهذا قط! لقد رأيت الأطفال دوماً يخرجون في النهار.»

لا بد أنها كانت تشعر بحكة شديدة في رأسها؛ لأنها بدأت تحكها بطرف إبرة التريكو.

- «أيمكنك أن تدليني على مكان هذه المدرسة؟» سألتها مرة أخرى.

خرجت من المتجر، وهي ترتدي خفاً. دلتني على الطريق المؤدي إلى هناك.

وصلت إلى المدرسة في وقت قليل. إنها بناء منخفض وممتد، عند زاوية الطريق، وتتألف فقط من طابق أرضي، وطابق أول، وتبدو محشورة بين المنازل الأخرى، التي تكاد

تكون كلها حجرية. مبنى يتمتع بقدر من الأهمية بالنسبة لبقية المباني الأخرى، وجدرانه مطلية بالملاط، ومن المحتمل أنه قد تم بناؤه منذ قرن مضى، عندما كانت البلدة مأهولة بعدد أكبر من السكان، وكان يوجد بها عدد أكبر من الأطفال. يبدو كأنه قد هبط هنا بالبراشوت من مكان ما.

توقفت أمام البوابة الكبيرة، ونظرت لأعلى. كانت النوافذ الكبيرة في الطابق الأول كلها مفتوحة، ولكن لم يكن يمكن رؤية إن كانت توجدٍ بالداخلٍ قاعاتٍ الدرس.

فجأة، لمحت طيفاً صغيراً معتماً يتحرك بسرعة كالسهم، ففهمت أنه طفل يرتدي مريولاً صغيراً، أسود اللون، قد مر بسرعة أمام إحدى النوافذ الكبيرة.

حبست أنفاسي من شدة الانفعال.

الفصل السادس عشر

في الليلة الماضية، حدث الزلزال مجدداً. لم تكن هزة أرضية واحدة، بل حدثت هزات كثيرة، الواحدة تلو الأخرى، واستغرقت كل منها عشر ثـوان. كانت هـزات أرضية تموجية.

كنت قد استغرقت في النوم تواً، بعد أن ظللت مستيقظاً لمدة طويلة في الظلام، بعيون مغلقة، وأنا لا أفكر في أي شيء. لكن النوم كان يجافينيٍ. أو على الأقل كان الأمر يبدو لـي هكذا؛ لأننا لا نعرف أبداً على نحو جيد ماذا يحدث في أذهاننا في تلك الحالات التي تسبق النوم، عندما يحدث لنا بضع لحظات نوع من التخشّب، ثم نستعيد بعدها على الفور سيطرتنا على أنفسنا، ونسترد وعينا من جديد بشكل كامل، عائدين من مكان ما انتهت بنا الحال إليه، حتى إن كنا لا نعرف ما هو. من يدري إن كان يوجد مكتشفون يندفعون هكذا في أعماق الأراضي المجهولة، ثم عندما يعودون للوراء، لا يتذكرون المكان الذي كانوا فيه؟

بدأ الفراش يهتز من تحتي، بعد أن استغرقت أخيراً في النوم ببضع لحظات، أو على الأقل هكذا كان يبدو لـي؛ لأن الزمن لا يعد له وجود، عندما نكون غارقين في تلك الحالة.

سمعت ذلك الدوي الطفيف المؤثر، الذي لا أعرف إن كنت أسمعه بالفعل، أم أنه فقط إدراك حسي للتصدع الهائل، الذي يحدث في اللحظة ذاتها للصخور، وللأرض في الغلاف الأرضي الصخري.

فتحت عيوني على وسعها، إن لم تكن بالفعل مفتوحة. كانت الهزات الأرضية تستمر دون توقف، الواحدة تلو الأخرى، وسط ذلك الصمت الهائل. لم يكن يتردد صياح هائج لأشخاص استيقظوا من نومهم، ولا يشتعل فجأة ضوء واحد، ولا يُسمع وقع أقدام لأناس يهربون في الليل، شبه عراة، أو يرتدون روب النوم، أو يلقون على أكتافهم أغطية الفراش. فقط أنا، مخفي، أمكث في نور مطفأ، بعيون مفتوحة على وسعها في العتمة، في هذا المكان المهجور، وأنا أشعر في ظهري باهتزازات ذلك الوحش، الذي كان يتحرك تحت القشرة الأرضية، وقد أصابني شعور طفيف بالدوار، والغثيان، وفقدان الوعي.

استدرت، استلقيت منطوياً على نفسي على أحد جوانبي؛ لأنه كان يبدو لي أن شعوري بالهزات يقل على هذا النحو. سحبت الغطاء فوق رأسي. انقطعت الهزات برهة، بضع ثوان، أو بضع دقائق، أو ربما أكثر، لا يمكنني الجزم، فلم يكن لدي إدراك، ووعي بالوقت. ثم استؤنفت من جديد. في لحظة معينة، حدثت هزة أطول من الهزات الأخرى، جعلت الفراش، والكمودينو يصدران صريراً. كان يتناهى من أسفل، من المطبخ، اهتزاز صوتي يزداد قوة. ربما كان صوت الصحون والأكواب، التي كانت تحدث جلبة، وهي تصطدم ببعضها البعض في المطبقية.

"الآن سيسقط كل شيء!" فكرت، وانطويت على نفسي أكثر، وأنا أستلقي على جانبي، وأغطي رأسي تلقائياً بذراعي المنثنية.

كنت أتوقع سماع أصوات الدوي الأولى للمنزل الذي يتصدع، وللحجارة التي تكاد تكون بلا جير، وهي تنفصل الواحدة عن الأخرى، وتتفكك، وحجارة القرميد التي تغطي السطح، وهي تنفصل وتسقط، والقطع الأولى من عوارض السقف الخشبية وهي تشرع في السقوط لأسفل؛ لتصيب رأسي، وتكسر ضلوعي، وعظام الحوض، والساقين، واللثة، وصفي أسناني، وتدق جمجمتي بشدة، وهي بداخلها المادة الدماغية المسكينة، التي ستستمر في التفكير، وفي المعاناة في سجنها اليائس من العظام المكسورة والحجارة. كنت لأجد صعوبة في التنفس بسبب الغبار، وانسحاق رئتيّ تحت ضلوعي المكسورة. كنت لأموت حينئذٍ بمفردي، في ذلك التابوتِ المصنوع من الركام، بعيدا عن الجميع، مخفيا، ومنسياً، دون أن أتمكن من التحرك تحت ثقل المنزل المنهار، وستمر علىَّ فترة ما من الوقت، دون أن يدري أحد أي شيء عن ذلك، في مدن العالم البعيدة، والمضيئة في الليل، والممتدة على مرمى البصر، وكنت لأتنفسِ بصعوبة متزايدة، وقد انسحق نصف مخي، ولأمكث زمناً ما هناك بالأسفل، دون أن يكون بوسعي حتى أن أبلل شفتي؛ بسبب جفاف حلقي في ذلك الحر الشديد.

ولكن على عكسِ ما توقعت، قلّت الهزات رويداً رويداً، حتى توقفت تماماً.

ظللت أنتظرِ قليلاً؛ لأنه في بعض الأحيان يبدو أن الأمر قد انتهى تماماً، ولكن على العكس تحدث بعد ذلك هِزة أخرى نهائيةٍ، تكون أشد قوة. عندما أدركت أنها انتهت حقاً، استدرت مجدداً على ظهري، حاولت أن أتنفس بعمق أكثر، وعيناي مفتوحتان على وسعهما في العتمة.

نهضت من الفراش. سرت بأقدام حافية نحو النافذة الصغيرة، وكنت أسمع في العتمة صوت عظامي الصغيرة،

التي كانت تطقطق، وهي تطأ ألواح الأرضية الخشبية. فتحت النافذة. فتحت أيضاً مصراعها الخشبي الصغير الموجود بالخارج. تأملت قليلاً قمم الجبال، والأدغال السوداء، المحيطة بي من كل مكان. كانت السماء أيضاً سوداء تماماً. لم يكن يتردد صوت واحد للحيوانات الليلية. صمت مطبق. العالم كله منذهل، بعد تلك الهزات العنيفة، التي شعرت بها أيضا هناك، وسط أوراق الشجر السوداء، الحيوانات المختبئة في جحورها، وأيضاً تلك الضئيلة العمياء، وكذلك الأشجار، حتى الجذور، التي تكون أول من يسند الأرض - أمام ذلك الانهيار المخيف - بأطرافها الرفيعة للغاية، التي تصل إلى عمق الأعماق، وتشعر قبل أي شيء آخر، بواسطة تلك الشعيرات الدماغية المخفية المقلوبة، بالعالم كله وهو ينقلب رأساً على عقب.

حولت نظري نحو التل الآخر.

كان ذلك الضوء الخافت لا يزال هناك، كأن شيئاً لم يحدث.

كان ينساب وسط الغابة، في الليل، وسط العتمة.

"أتراه شعر هو أيضاً بالزلزال؟!" تساءلت.

الفصل السابع عشر

اليوم، جعلني الطفل أدخل، لأول مرة.

وصلت إلى هناك في بداية العصر. قبل أن أنزل من السيارة، سحبت النوافذ لأعلى؛ لأنني في المرة السابقة تركتها مفتوحة، وعندما عدت لأرحل من هنا، رأيت حيواناً كبيراً في الحجم إلى حد ما، ربما كان ثعلباً، وهو يقف على قوائمه الخلفية، ويمد جسمه، في محاولة ليصل بخطمه المدبب إلى مستوى النافذة الصغيرة، وينظر بالداخل.

وعندما شعر بوصولي، فر هارباً بسرعة البرق، بذيله الطويل، في وسط الأشجار.

دنوت من المنزل. وصلت إلى الباب. نظرت إلى الداخل.

لم يكن الطفل موجوداً.

لم أكن أدري ماذا أفعل. لم يكن بإمكاني مناداته؛ لأنني لم أكن أعرف حتى اسمه.

كان الباب مفتوحا، لكن لم يكن باستطاعتي الدخول، دون أن يكون لدي إذن بذلك.

هكذا جلست على المقعد الطويل المكسور، الموجود هناك بجوار الباب، وانتظرت.

بعد قليل، سمعتُ وقعاً خافتاً لأقدام تهبط على السلم

الخشبي، وكانت أصوات هبوطها متباعدة جداً في الزمن؛ لأن درجات السلم كانت عالية على ساقيه الصغيرتين.

نهضت واقفاً على قدمي، واستدرت نحو الباب.

وصل الطفل ببطء حتى آخر السلم. عندما رآني، اتسعت عيناه، واتجه نحوي، وهو يكاد يجري. وصل حتى الباب، ثم توقف.

كان ينظر إليَّ. كانت عيونه حمراء، كأنه كان يبكي.

- «ماذا يحدث؟» سألته.

ظل صامتاً. ولكنه كان يرتجف قليلاً، متردداً بين الرغبة في أن يخبرني شيئاً ما، وبين أن يصمت.

استدار بعد ذلك. ذهب ليأخذ إسفنجة جلي صغيرة من على الحوض، وسكب فوقها بعض قطرات من منظف سائل، وأخذ في تنظيف داخل الفرن.

كان يعمل بكلتا يديه داخل الفرن. كنت أسمعه، وهو يحك بقوة بالوجه الخشن للإسفنجة الصغيرة، ثم يزيح الصابون بالوجه الآخر.

- «أتستخدم الفرن أيضاً؟» سألته مندهشاً، وأنا أقف أمام الباب المفتوح.

- «أجل، بالتأكيد!» أجاب، وهو جاثٍ على ركبتيه ويديه أمام الفرن، ورأسه داخل الباب الصغير المفتوح على وسعه.

- «وماذا تعد فيه من طعام؟»

- «أوه، أشياء كثيرة...»

كان صوته الصغير يأتيني غير واضح قليلاً من داخل الفرن.

- «غير معقول!» أفلتت مني الكلمات.

أخرج الطفل رأسه من الفرن. كان يبدو أنه يشعر بالإهانة.

- «وماذا تعد، على سبيل المثال؟» سألته مرة أخرى.
صاح قائلاً: «اليوم صنعت صينية بطاطس بيوريه!»
- «لا يمكنني أن أصدق ذلك!» أفلت مني القول مجدداً.
نهض الطفل. ذهب نحو الخوان. رفع منديل مائدة صغيراً مفروشاً فوق صينية بطاطس بيوريه.
تناول الصينية. أتى نحوي وهو يحملها بين يديه الصغيرتين.
- «أترغب في تذوقها؟» سألني.
وهكذا دخلت.
خطوت خطوة في الداخل، وأنا أحبس أنفاسي. نظرتُ من حولي، في ذلك المطبخ، الذي كان فيه كل شيء مرتباً: طاولة الطعام نظيفة وخالية، والأطباق مغسولة، ومصفوفة كلها جيداً في المطبقيَّة، وأدوات الطعام تنتصب في حاويتها؛ حتى تجف جيداً، وهناك منشفة مطوية على مسند إحدى الكراسي الخشبية، وأخرى معلقة على مسمار صغير، بجوار الحوض.
وضع صينية البطاطس البيوريه على طرف المائدة.
- «انظر كم هي طيبة الرائحة!» قال لي مرة أخرى.
انحنيت؛ كي أنظر إليها. كانت تنقصها قطعة صغيرة، والتي لا بد أن الطفل قد تناولها.
تناولت السكين الموجود بجوارها، وقطعت منها شريحة، ووضعتها في فمي.
بدأت أمضغها ببطء، بانفعال هائل. كنت أشعر بقوامها داخل فمي، وهي تتفتت تحت أسناني، مصطدمة بسقف حلقي ولساني.
- «إنها طيبة المذاق جداً!» قلت له عندما انتهيت.
- «أرأيت؟» أجابني مسروراً.
نظرت من حولي مجدداً، في المطبخ. كانت توجد أيضاً

مدفأة، وراء ركن أحد الجدران، فلم يكن يمكن رؤيتها من الخارج، وكانت هناك قطع من الخشب مكومة بجوارها، وصندوق مليء بحزم حطب مقطع.

- «ألديك أيضاً مدفأة!» قلت له. «وتشعلها؟»

- «بالتأكيد!» أجاب. «عندما يكون الجو بارداً.»

كانٍ يرد بإجابات ملائمة، لكنني كنت أدرك أن ذهنه كان مشغولاً بشيء آخر تماماً، فقد كان هناك ما يقلقه، وقد ألهيته عنه بوصولي.

- «أترينني منزلك؟» سألته.

مكث صامتاً بضع لحظات.

- «حسناً...» قال أخيراً متنهداً.

استدار. شرع في صعود الدرج الخشبي، وهو يرفع بشدة لأعلى في كل خطوة ساقيه الصغيرتين، اللتين تبرزان من السروال القصير؛ حتى يتمكن من الوصول إلى درجات السلم.

كنت أتبعه، دون أن أنبس بكلمة، وكنت أرى أمامي ظهره، ورأسه الصغير الحليق، اللذين كانا يتقدمان في صمت عبر درجات السلم.

وصلنا إلى الطابق العلوي.

كانت توجد غرفة واحدة كبيرة منخفضة عند الجوانب، حيث كان السقف مائلاً، وكان بها فراش حديدي صغير، وأغطيته مطوية جيداً، وبجواره خفان صغيران، وكمودينو من الخشب، وكانت الأرضية خشبية. لا شيء آخر.

- «غرفة واحدة...» تمتمت. «ربما كانت مخزن التبن، في وقت ما...»

- «كان هناك رجل يخزن فيها الكستناء، أخبروني بذلك.»

نظرت فجأة للطفل.

- «من أخبرك بذلك؟»
لم يجبني.
نظرت حولي، في تلك الغرفة الكبيرة العارية.
- «لا يوجد حتى المرحاض!»
أشار الطفل بيده.
- «إنني أذهب إلى الغابة» أجاب.
كنت أسمع وقع خطواتي فوق ألواح الأرضية الخشبية، بينما كنت أتجه نحو النافذة الصغيرة الوحيدة الموجودة في الغرفة الكبيرة.
نظرت إلى الخارج. رأيت فقط تلك المساحة الشاسعة من الخضرة المهجورة والمغطاة بالأدغال. لم تكن بلدتي الصغيرة تُرى من هنا. ولكن بإمعان النظر في الناحية الأخرى للمضيق، كان يمكن رؤية أحد جوانب منزلي الصغير، وهي تبرز من بين الخضرة.
استدرت نحو الطفلٍ.
- «أتراه أنت أيضاً، عندما يحل الظلام، الضوء الخافت لذلك المنزلٍ الموجود هناك بعيداً؟»
تردد قليلاً قبل أن يجيب.
- «أجل» قال أخيراً، وهو يتنهد.
كنت أرتجف قليلاً، في تلك الغرفة الكبيرة الفارغة، أمام الطفل، الذي كان يرمقني في صمت، من أسفل، بعيونه المتورمة المستديرة.
- «حسناً، ها أنت قد رأيت كل شيء الآن!» قال لي بصوت خفيض، قبل أن يستدير، ويشرع في السير نحو الدرج.
تبعته. سلكنا مطلع الدرج، هو في المقدمة، وأنا في المؤخرة. كان يهبط ببطء شديد؛ بسبب عدم التناسب بينٍ ساقيه الصغيرتين، ودرجات السلم، فكان يميل بجانبه قليلاً، وهو يستند بيده الصغيرة على الجدار.

عندما عدنا من جديد إلى المطبخ، أخرج الطفل، دون أن يقول لي أي شيء، الدفاتر من الحقيبة المدرسية، وفتحها فوق الطاولة، وجلس أمامها.

لم أكن أدري ماذا أفعل، إن كان لا يزال يمكنني البقاء هناك، أم إن كان في ذلك إشارة إلى أنه يجب عليَّ أن أرحل.

كنت أرمقه، بينما كان يفتح الدفتر جيداً، فيمر فوقه براحة يده الصغيرة مراراً وتكراراً، من أسفل لأعلى، ورأسه محن، وعيونه لا تزال حمراء، ومتورمة قليلاً.

- «أنت دوماً بمفردك!» لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أصيح فجأة في تعجب.

- «لقد اعتدت على هذا» أجاب، دون أن يرفع رأسه.

بدأ يبري القلم الرصاص، في بطء شديد جدا، بينما كان يعض على شفتيه.

- «بالأمس، جعلوني أقف وراء السبورة!» صاح فجأة، وقد فقد السيطرة على أعصابه.

جمدت مكاني، وأنا واقف على قدمي.

"إذن فلهذا السبب استغرق وقتاً طويلاً هكذا في النزول، عندما وصلت!" كنت أفكر. "كان يبكي بسبب شعوره بالمذلة، هناك في الغرفة الكبيرة بالأعلى، وهو بمفرده..."

ارتميت على المقعد الآخر القريب منه.

- «ولم جعلوك تقف وراء السبورة؟»

ظل صامتاً برهة. كان يرتجف.

- «إنني لا أفهم شيئاً! لا أتعلم شيئاً!» صاح مجدداً، وكان يبدو أنه يكز على أسنانه، ويعض بشدة على شفتيه؛ كي لا ينفجر في البكاء أمامي. «لا أنجح في أداء الواجبات!»

- «ولكن فلتدعني إذن أساعدك!»

هز رأسه مرتين أو ثلاث مرات، دون أن ينظر إليَّ.

- «لا، لن يفيد هذا في شيء! سيدرك المعلم ذلك، إذا لم

أؤديها بمفردي!»
كنت أنظر إليه، وأتأمله، بينما كان يكز على أسنانه، غارقاً في يأسه.
ساد صمت طويل.
- «قالوا لي في البلدة إنه توجد فقط المدرسة الصباحية...»
تمتمت، بصوت خفيض، فجأة.
رفع الطفل وجهه نحوي.
- «تلك المدرسة خاصة بالأطفال الآخرين...» أجابني، وهو يرمقني بعيونه المستديرة، المفتوحة على وسعها.
- «الأطفال الآخرين؟ أي أطفال تعني؟»
تردد قليلاً، قبل أن يجيبني.
- «الأطفال الأحياء.»

الفصل الثامن عشر

يوجد عصفور، أتى من نِاحية ما بالغابة، في مكان خفيض، أمام منزلي، ويصدر صوتا كصرير الباب.

في البداية لم أكن أفهم ما كنهه، ومن أين كان يتناهى، ذلك الصوت الغريب الذي كنت أسمعه من حين لآخر، وهوٍ مثل باب قديم، حينما يُفتح، تحدث مفصلاته الصدئة صريراً، لكنه كان يصدر ببطء، ببطء شديد، ويفصل بين كل صرير وآخر وقت طويل، وكان يبدو أنه يتناهى من الغابة، حيث لا توجد مفصلات، ولا أبواب.

فيما بعد، لا أعرف كيف، لكنني أدركت أنه صوت حيوان، صوت عصفور.

أسمعه من حين لآخر. سمعته أيضاً منذ قليل، وحينئذ سألته، وصوتي يتردد وسط كل هذا السكون السائد:

- «وأنت إلى أي سلالة من العصافير تنتمي؟»

لم يجيبني، لكنني تخيلت أنه قد أجابني على العكس هكذا:

- «إنني من سلالة العصفور الباب الذي يحدث صريراً.»

- «ولكن لم لا أراك أبداً؟ أنظر وسط أوراق الشجر، عندما أسمع صوتك، لكنني لا أرِاك...»

- «ألا يحدث هكذا أيضاً مع الأبواب التي تحدث صريراً؟

تلتفت حتى ترى، ولا يوجد أحد أبداً.»
- «ولكن يكون شخص ما هو الذي جعلها تحدث صريراً، حتى إن كان بعد ذلك قد اختفى على الفور بعد أن فتحها؛ حتى لا يراه أحد!»
- «أحياناً، لا يوجد أحد، تكون فقط الرياح هي من فعلت ذلك.»
- «إذن فأنت الرياح؟»
- «لا، أنا الباب الذي جعلته الرياح يصدر صريراً.»
- «حسناً، ولكن لم في بعض الأحيان أسمع صوتك، برغم أنه لا توجد رياح؟»
- «إنني العصفور الذي يجعل الرياح أيضاً تحدث صريرا.»

رحلت طيور السنونو. لم تعد تتردد تلك الصيحات في السماء، بعد أن تتوارى الشمس خلف التلال، ويتلاشى الضوء، وهو الوقت الذي كانت تنقض فيه لآخر مرة على ما تقتات به من حشرات، وكائنات أخرى صغيرة معلقة فوق خط الأفق، قبل أن تختفي في أعشاشها بين الحجارة، والأسقف، وقبل أن تخرج الخفافيش من شقوق المباني الخربة، وتشرع بدورها في الانقضاض على الطعام، في السماء المعتمة، بأفواه مفتوحة على وسعها، ومليئة بالأسنان. كنت أنتظرِ وصولها، بعد أن اختفت طيور السنونو من السماء، طائراً تلو الآخر، وهو الأمر الذي يعني أنه قد حانت اللحظة أيضاً بالنسبة لي للعودة إلى منزلي؛ كي أتناول وجبتي الصغيرة بمفردي، في هذا المكان المهجور.

تصل الخفافيش الآن في وقت أبكر من ذي قبل - على ما يبدو لي - ربما لأن النهار يقصر، والظلام يحل في وقت مبكر.

أمكث قليلاً لأشاهدها، وأنا أجلس على الكرسي الحديدي،

واضعاً نعل حذائي على الدرابزين المنخفض، وركبتاي مثنيتان. أتأمل أشكالها، وهي تنجلي من العتمة، وتطير على نحوٍ مائل. تخطئ المسار باستمرار، خاصة الخفافيش الأصغر سناً، والمواليد الجدد، الذين يشرعون في تعلم الطيران بأغشية أجنحتهم الجلدية. تقترب مني بشدة، ثم عندما يبدو أنها توشك على الارتطام برأسي، تبتعد فجأة، وتواصل طيرانها غيرِ المتناسق والأعمى في الظلام، ثم فجأة تقترب منك مجدداً، فيبدو كأن خرقاً من القماش تُلقى في وجهك.

الفصل التاسع عشر

مساء أمس، عندما حل الظلام، بدلاً من أن أعود إلى المنزل؛ كي أعد لنفسي شيئاً من الطعام، أخذت السيارة ونزلت إلى البلدة.

كنت أقود ببطء، وقد أضئت مصابيح السيارة، وأنزلت النوافذ. رأيت، خلف إحدى المنعطفات، أضواء المقبرة التي كانت تتلألأ في الظلام. كانت الليلة حالكة السوداء، وهناك ريح خفيفة. رفرف عصفور بأجنحته بقوة وسط أوراق الشجر، ربما بعد أن انتفض من نومه بسبب الضجة التي يحدثها المحرك في ذلك السكون المطلق. لا بد أن هناك طبقة من السحب المنتفخة والسوداء في السماء؛ لأن النجوم لم تكن تظهر.

كنت مستمراً في النزول، فكنت أفصل المحرك من حين لآخر في المنحدرات الطويلة. كان هناك حيوان ما يعبر الطريق، فبدا أنه قد لمح، فقط في آخر لحظة، سيارتي التي كانت تهبط دون أن تحدث صوتاً، فالتفت برأسه فجأة نحو مصابيح السيارة؛ فأغشى الضوء بصره.

لم تكن هناك سيارة أخرى تجول في الطريق. سلكت الطريق الأكثر اتساعاً قليلاً، الذي يؤدي إلى البلدة. حتى البيوت القليلة

الموجودة كانت تغلق المصاريع الخشبية لنوافذها، فلم يكن ينسل منها أي ضوء. ربما يكونون جميعاً بالداخل؛ لتناول الطعام، أو أمام شاشات التلفاز، أو أنهم يستعدون بالفعل للنوم؛ لأن الناس يأوون إلى فراشهم مبكراً في هذه الأماكن.

وصلت إلى البلدة. أوقفت السيارة في الفسحة الموجودة عند مدخل البلدة. خرجت. خطوت بعض الخطوات. لم يسبق لي أن نزلت في البلدة في مثل هذه الساعة. لم يكن هناك أحد يتجول في الطرق الصغيرة، التي تضيق المنازل الحجرية مسارها. ولا حتى في أكبر الطرق، الذي يمر بالبلدة من أولها لآخرها. حتى الحانة الوحيدة الموجودة كانت مغلقة. كنت أسمع فقط، من حين لآخر، دوي إحدى أجهزة التلفاز يتناهى من نافذة أو أخرى، وقد أغلقت مصاريعها الخشبية، وكان ينسل من بين فرجاتها وميض خافت، بينما كانت كل المنازل الأخرى ساكنة، وأنوارها مطفأة، فقد كان ساكنوها يستلقون - بالفعل في الظلام - في أسرتهم.

انعطفت عند إحدى الزوايا، ومررت تحت قبة. خطوت بعض خطوات أخرى. توقفت فجأة، وقلبي يخفق بشدة.

كانت المدرسة مظلمة تماماً. لم يكن ينسل أي ضوء من نوافذها الكبيرة، ولا من الطابق الأرضي، ولا من الطابق الأول.

"ولكن إن كانت الدروس تدور الآن في المدرسة، فلا بد أن ينسل بعض الضوء..." قلت لنفسي. "ليس للنوافذ مصاريع خشبية، فربما تغطيها من الداخل ستائر كبيرة وسميكة، يسدلها حارس المبنى، بعد أن يحل الظلام، وعندما تكون الدروس قد انتهت، وهو يقوم بجولة أخيرة عبر الممر الفاصل بين الفصول، قبل أن يغلق المدرسة..."

مكثت هناك بلا حراك، وأنا أحبس أنفاسي ولا أفكر في أي شيء.

كان المبنى معتماً تماماً، ولم يكن ينبعث من الداخل أى ضوء، أو أى صوت.

لم أكن أستطيع التحرك خطوة واحدة؛ كي أسير عبر البلدة المهجورة، وأعود إلى حيث تركت السيارة. ظللت أمكث هناك، واقفاً بلا حراك، ومنهكاً، في ذلك المكان المظلم، الذي يضيئه بالكاد مصباح كان يتأرجح وسط الطريق بفعل الرياح.

لا أدري كم مر من الوقت وأنا هكذا. أعرف فقط أنه، فجأة، بالضبط بينما كنت قد نجحت أخيراً في أن أستدير؛ كي أعود، أو على الأقل هكذا بدا لي، إلا إذا كان مجرد ظن من جانبي، شعرت بشيء، مثل فراغ هوائي صغير من ورائي.

استدرت مجدداً نحو المدرسة، لكنني لم أر شيئاً. كان الصمت شديداً، لدرجة أنه كان يمكنني أن أسمع الحفيف الذي كان يصدره الضوء داخل المصباح فوق رأسي.

بعد بضع لحظات، بدا لي أن البوابة تنفتح ببطء في العتمة، دون أن تصدر صوتاً.

لا أعرف السبب، ولكنني انتحيت جانباً بشكل عفوي؛ كي لا يلمحني أحد. ذهبت لأقف وراء زاوية المبنى المقابل، حيث كان يمكنني أن أرى، دون أن يرانِي أحد.

كانت البوابة الآن مفتوحة تماماً، ولكن لم يكن يخرج منها أحد.

ما زال ذلك الصمت المطبق سائداً. كان هناك شيء يحدث صوتاً حاداً، من مكان ما في الأعلى، ربما كان المصباح هو ما يفعل ذلك؛ بسبب الريح.

كنت أمد رأسي من وراء زاوية المبنى، حيث كان يمكنني رؤية جزء كبير من البوابة المفتوحة على مصراعيها، ومبنى المدرسة كله الذي لا يزال مظلماً، حتى في الطابق الأرضي، وحتى في الردهة، التي توجد وراء المدخل.

فيما بعد، سمعت فجأة وقع أقدام خافت، كأنه يأتي من مكان بعيد جداً.

بعد بضع لحظات، شرع بعض الأطفال في الخروج من البوابة في صمت، واحداً تلو الآخر، وهم يرتدون مرايلهم الصغيرة السوداء، ويحملون حقائبهم المدرسية.

كانت ساقاي ترتجفان قليلاً، وكنت أشاهدهم، وأنا أحبس أنفاسي، متوارياً خلف الزاوية، في الظلام، بينما كانوا يخرجون من البوابة، ثم يهبطون درجات السلم القليلة التي تؤدي إلى الشارع. كنت أحاول أن أميز الرأس الحليق لذلك الطفل، وسط الرؤوس الأخرى.

خرج بعد ذلك القليل منهم. ظننت أنه لم يعد أحد منهم موجوداً، ولكن خرج اثنان آخران.

ثم لا شيء بعدٍ ذلك.

"ليس موجوداً!" قلت لنفسي، في النهاية.

ولكنٍ على العكس، عندما كان يبدو أنه لم يعد أحد آخر موجوداً، خرج هو أيضاً.

علىٍ الفور بعدها انغلقت البوابة خلفه فجأة، دون أن تحدث صوتاً.

اتخذ كل من الأطفال طريقه، دون أن يتبادلوا كلمة واحدة فيما بينهم، ودون أن يحيوا بعضهم البعض.

كنت على وشك أن أخرج من الركن، الذي كنت أختبئ خلفه، وأقترب من الطفل، وأتناول منه الحقيبة المدرسية؛ كي أرافقه حتى منزله الصغير البعيد، وسط الغابة. لكنني بعد ذلك توقفت؛ لأنه كان بالفعل قد أجابني بالرفض، عندما طلبت منه ذلك.

"ما هذا العالم؟" كنت أفكر، وأنا أشاهد الأطفال، الذين كانوا يسيرون بمفردهم في الظلام، وسيقانهم العارية تظهر من مرايلهم الصغيرة، وهم يحملون حقائبهم المدرسية. "ما

هذا العالم، الذي يوجد فيه - بينما ينام الجميع - أطفال متوفون يخرجون في سكون من المدرسة المسائية، بمفردهم، ولا أحد يعرف ذلك، ولا أحد يراهم. لا يجدون أحداً واقفاً أمام البوابة، ولا يرفعون حتى عيونهم في الظلام، خاصةً أنهم يعرفون أنه لا يوجد أحد في انتظارهم. يرحلون بمفردهم، إلى مكان ما... والآن سيعبر ذلك الطفل البلدة المهجورة، وسيسلك ذلك الطريق الصغير الصاعد، الذي يصل حتى بداية سلسلة التلال، ثم بعد ذلك المدق الآخر الأضيق، والذي تجتاحه الخضرة ونباتات العليق، ويصعد في وسط الغابة، وفي أعماق الليل، وفي الظلام، سيسير بمفرده، وسيصل إلى بيته الصغير، وسيشعل ذلك الضوء الخافت... كم هم يثيرون الشفقة، الأطفال الأموات، عندما يخرجون هكذا من المدارس المعتمة، في الليل، بمفردهم! ولكن ألا يثير الشفقة نفسها، الأطفال الأحياء؟!"

الفصل العشرون

يزداد الجو برودة. أشعر بلفحات الهواء تشتد، وتضربٍ وجهي. حتى الضوء صار أكثرٍ بـرودة، أكثر وضوحاً وبرودة. يحدث الآن أمر ما أيضاً بين الحيوانات الكبيرة، والصغيرة، البرية، والطائرة. أدرك ذلك عندما أجلس في المساء، أو في الليل على هذا الجرف الصخري، أو عندما أسير عبر الدروب الممتدة بين الإدغال. يبدو لي أن حواسي تلتقط أصواتاً مختلفة، تلتقط نوعاً ما من العمل الدؤوب، بين أوراق الأشجار التي تظلل رأسي، والتي بدأت تجف، وتفقد القليل من خضارها، ووراء السياجات من شجيرات العليق الشائكة، والتي يتناهى منها أصوات خافتة لحوافر، وأقدام صغيرة تسير خلسة، وتفر بعيداً عندما تسمع وقع خطواتي، ولكن يكون ذلك في اللحظة الأخيرة، كأنها منشغلة في أعمال أخرى، فتكون مستغرقة تماماً فيها بذهنها، لدرجة أنها لا تدرك وجودي سوى في وقت متأخر. وأسمع أيضاً أصوات نخير بطيئة، وغير واقعية، من أماكن قريبة جداً.

أستمر في الذهاب كل يومين أو ثلاثة إلى ذلك الطفل. أوقف السيارة في المكان المعتاد، بجوار تلك الجذوع المنكسرة. أدخل دون أن أنبس بكلمة في منزله. في بعض الأحيان،

أجلب له بعض المواد الغذائية، في كيس يستعمله هو بعد ذلك في جمع القمامة. لم يرفض هو هذا الأمر.

- «أتود المكوث لتناول الطعام معي؟» سألني على نحو غير متوقع، عندما وصلت في هذا الصباح.

كنت قد ذهبت إلى هناك في ساعة مبكرة عن المعتاد؛ لأنه لم يكن يمكنني فعل أي شيء آخر، ولم يكن يمكنني البقاء في أي مكان آخر.

ترددت أنا، هذه المرة. كنت على وشك الإجابة بالرفض، لكنني رأيت أن الطفل كان لأول مرة يبتسم ليّ.

كانت تظهر بوضوح أكثر تلك السن الصغيرة المكسورة من بين شفتيه، اللتين كانتا دوماً مفتوحتين قليلاً؛ ربما لأنه لم يكن يتنفس جيداً من أنفه بسبب الزائدة الأنفية.

- «كيف كسرت تلك السن الصغيرة؟» خطر ببالي أن أسأله فجأة، رغم أن السؤال لم يكن له صلة بالأمر الذي كنا نتحدث فيه.

- «في عراك!» أجابني، وهو يرفع وجهه الصغير في فخر.

مكثت هناك واقفاً بلا حراك، دون حتى أن أجيب دعوته.

لم أكن أعرف ماذا أقول. ظللت صامتا. كان الطفل أيضاً يرمقني في صمت بعيونه المستديرة، وهو يبدو جاداً وحذراً.

- «من سيطبخ؟» سألته حينئذ، وأنا أبتسم؛ حتى أكسر ذلك الصمت الطويل.

- «أنا! أنا!» صاح الطفل، وهو يجري نحو المسطح الذي يوجد فيه الموقد، والحوض.

بدأ يخرج من الكيس الخضراوات التي أحضرتها، وغسلها تحت الصنبور، وهو يقف على الصندوق المقلوب، وأخذ على الفور يقطعها بسرعة، وهو يثبتها بيده الصغيرة، التي

لم تكن تحرك السكين بمهارة.

جلست على المقعد، محولاً بصري إلى ناحيته، دون أن أتكلم. كنت أشاهد في اندهاش يديه الصغيرتين، وأظافره الصغيرة، التي كانت تنسحب بسرعة البرق أمام تقدم السكين، التي كانت تستمر في تقطيع شرائح جديدة من الخضروات. وأراه بعد ذلك وهو يملأ الإناء تحت الصنبور، فكان يحمله بصعوبة تزداد بالتدريج كلما زاد امتلاؤه بالماء، وثقل وزنه، وهو يقف على الصندوق المقلوب؛ حتى يتمكن من الوصول إلى مستوى سطح الحوض، ثم أتأمله، بينما كان يضع بداخله المعكرونة عندما بدأ الماء يغلي، وذلك بعد وقت طويل من وضع الإناء على النار؛ لأن الماء هنا يستغرق وقتاً أطول حتى يغلي.

- «ما اسمك؟» سألته فجأة.

اكتسب وجهه ملامح الجدية فجأة.

- «لا أعرف.» أجاب، وهو يهز رأسه الصغير الحليق.

- «كيف يمكن هذا؟»

التفت لينظر إليَّ وهو حائر.

- «من الواضح أنني لا أتذكره.»

- «ولكن بالتأكيد لديك اسم!»

- «إنني لا أعرفه.»

لكنني كنت أدرك أنه لا يزال يفكر في الأمر، وأن الحديث لم ينقطع.

التفت برأسه مجدداً نحوي، بعد برهةٍ من الوقت.

- «رفاقي في المدرسة يدعونني ستوكّو.» قال لي فجأة.

- «ولم؟»

هز رأسه مرة أخرى.

- «لا أعرف.»

فيما بعد، اكتفيت بعض الوقت بمشاهدته، وهو يعد الطعام

أمام الحوض، والموقد، واقفاً على قدميه فوق الصندوق، ويدير لي ظهره.

نهضت من مكاني؛ لأن الطعام كان تقريباً جاهزاً، وحان الوقت لإعداد المائدة.

- «مفرش المائدة موجود هناك!» قال لي، وهو يشير إلى أحد الأدراج. «لقد غسلته وكويته توا.»

- «لماذا؟ أتكوي أيضاً؟»

- «بالتأكيد!»

- «بماذا تكوي؟»

- «وجدت هنا مكواةً قديمة.»

تناولت مفرش المائدة من الدرج، وأيضاً مناديل المائدة الصغيرة، وكانت كلها مكوية ومطوية جيداً. فردت المفرش، وفرشته جيداً على الطاولة، ووضعت المناديل الصغيرة أمام المقعدين. تناولت الصحون، وأدوات تناول الطعام، والأكواب، وأنا أمر بيدي فوق رأس الطفل، الذي كان يضع التوابل على السلطة في سلطانية من البلاستيك؛ كي أصل إلى المطبقية.

- «انظر أنت أيضاً إن كانت المعكرونة قد نضجت!» قال لي، وهو يقضم عودا من عيدان المعكرونة الإسباجيتي أخرجه من القدر بالشوكة.

تناولت عوداً منها أنا أيضاً. مضغته.

- «أجل، لقد نضجت!» قلت له.

اطفأ النار، ورفع القدر الممتلئ فوق رأسه، بصعوبة، ممسكاً بمقبضه بكلتا يديه. استدار نحو الحوض، حيث كانت توجد بالفعل مصفاة المعكرونة.

دنوت منه. تناولت مصفاة المعكرونة، ورفعتها، وقلبت بداخلها الإسباجيتي التي كان يتصاعد منها البخار، وأنا أحمل القدر أيضاً بيدي، ثم وضعتها في سلطانية أخرى موجودة

على الموقد.

وضع الطفل بداخلها قطعة كبيرة من الزبد، قطعها بالشوكة من قالب أخرجه من البرّاد. بدأ يبشر فوقها الجبن، بمبشرة صغيرة، وفتحاتها ضيقة، من ذلك النوع الذي يستخدم عادةً لبشر جوز الطِيب.

قمت بتقليب المعكرونة؛ لإذابة الزبد والجبن، ثم وضعت السلطانية في وسط المائدة.

جلسنا. بدأنا نغرف الطعام بواسطة شوكة كبيرة، ذات أسنان طويلة جداً ومتباعدة، أخرجها الطفل من الدرج الخاص بأدوات تناول الطعام.

انتهيت من وضع المعكرونة في طبقه، ثم في طبقي. تبقى منها القليل داخل السلطانية.

- «فلتأخذه أنت!» قال لي. «هذا يزيد عن حاجتي، فأنا صغير السن.»

بدأنا نلف الإسباجيتي بالشوكة. لم يكن أحد منا يتحدث. كنا نسمع فقط الصوت الخافت لمضغنا للطعام، وهو يتردد وسط السكون. كنت ألمح بالكاد رأس الطفل المنهمك في تناول الطعام، بانفعال، كما كان يبدو لي.

- «إنها طيبة المِذاق!» قلت له في النهاية.

أحنى رأسه قليلا، وقد تورد وجهه.

كنا نسمع من حين لآخر صوت الماء، الذي كنا نسكبه في أكوابنا من قارورة زجاجية، كان الطفل قد ملأها بالماء من الصنبور، ووضعها في وسط المائدة، قبل أن نجلس. مكثنا هكذا قليلاً، وأمامنا صحون المعكرونة الفارغة، ثم حملها الطفل، ووضعها في الحوض. وضعنا قليلاً من السلطة في الصحون المسطحة. شرعنا في تناولها.

كنت أرمق الطفل الذي كان يمضغ السلطة، وكان يعيد بأصابعه إلى داخل فمه القطع الصغيرة التي كانت من حين

لآخر تفلت من بين شفتيه. كان هو أيضاً يرمقني بين حين وآخر، دون أن يدير رأسه.

كنا نسمع هدير الثلاجة، التي كانت من ذلك الطراز القديم المزود بمقبض، فكانت من حينٍ لآخر تنطفئ، ثم تدور مرة أخرى فجأة، وهي تهتز قليلاً، كأن القشعريرة تسري في بدنها.

- «كيف مت؟» سألته فجأة، بصوت خفيض، وأنا أتنهد.

أخفض الطفل رأسه، وزفر زفرةً.

- «قتلت نفسي.» أجاب، متحدثاً هو أيضاً بصوت خفيض، وهو يتنهد.

- «لماذا؟» سألته مرة أخرى في تردد.

- «لقد آذونـي» اكتفى بهذا القول، وقد تغضن جبينه الصغير، دون أن يرفع رأسه.

مكثت هنيهة في صمت تام، وقد جمدت في مكاني.

- «أجل، إنني أعرف ذلك، إنه عالم سيئ، لا يصلح للعيش فيه...» سمعت صوتي وهو يتكلم.

الليلة حالكة السواد. لا تزال السماء مفعمة بالسحب السوداء. لم أكن أرى النجوم، ولا السماء، وأنا أهبط عبر ذلك الطريق الصغير المتعرج، الذي يمر بجوار المقبرة. لم تعد حتى الحباحب موجودة، فقد انتهى موسمها القصير. أميز بالكاد معالم الأشجار السوداء الضخمة، التي تصطدم بالسماء. لا أسمع أصوات الحيوانات الليلية، ولا تلك الجوارح الصغيرة، التي تختبئ وسط أوراق الشجر، وتطلق دون سبب معروف صيحتها تلك، عندما تسمع وقع أقدامي في الظلام. على أحد الجوانب، فيما وراء حاجز حديدي صغير تم وضعه هناك في وقت ما، يوجد منحدر تجري عليه الأسلاك الكهربائية التي توصل النور للبلدان القابعة في الأسفل، فكانت تتدلى من بين عمود كهرباء وآخر، فوق شريط من الأدغال المدمرة.

أسير، وأسير، بسبب هذه الحركة التي تستمر العظام والعضلات في الإتيان بها في الظلام، وبسبب حركة الأعصاب، والأوتار، والأنسجة الضامة، والفقرات، والمخ الذي يرسل الإشارات المحفزة لتنشيط هذه الحركة، التي تبدو لي لا إرادية، كأنها تحدث في مكان آخر، كأنها تتولد من نفسها، دون حاجة لتلقي محفزات، بينما المخ يوجد في مكان آخر، يصعب الوصول إليه، وحيداً، ومتناهي البعد، وكأنه يكتفي بتسجيل محفزات أخرى موجودة لسبب ما، وفي وقت ما، على مسار منفصل من مسارات الذاكرة، تم تخطيه الآن، أو لم يتم تنشيطه بعد.

أستدير عند منعطف آخر يخرج من منطقة أشد كثافة في الغابة. تظهر فجأة أمام عيني تلك الكوكبة الصغيرة من الشموع، التي تومض في الليل.

أدنو منها أكثر. أصل حتى البوابة الصغيرة، المغلقة فقط بسلك حديدي مربوط، يمكن فكه بسهولة. أقف أمام البوابة، وأنظر قليلاً للشموع فوق الأفران، وللمساحة الصغيرة الموجودة في الوسط، التي تتناثر فيها تلك الأكوام الترابية التي لا توجد عندها شواهد أو أسماء.

أفك السلك الحديدي. أدلف للمقبرة الصغيرة. أخطو بضع خطوات بين تلك الأكوام الترابية المحاطة بالشموع.

"أتراه مدفون هو أيضاً هنا، ذلك الطفل؟" خطر على بالي فجأة. "أيكون كل هؤلاء المدفونين هنا هم ممن انتحروا؟"

الفصل الواحد والعشرون

تسرب شعاع خافت من الشمس. إذا أطللت من النافذة الصغيرة في الغرفة التي أنام فيها، أرى في الأسفل أشجار الكستناء، التي تفقد أوراقها، وطرفها الطويل وهو يرتفع وقد امتقع لونه، وتحجر، وعلا فوق الأفرع الأخرى، التي لا تزال حية، وفوق غطاء أوراق الشجر، التي تزداد تغضناً. إنه الآن هو ما يمضي قدماً وباقي النبات يتبعه. في مناطق أخرى من الغابة أيضاً، عندما يهل الربيع، كانت تبرز أكثر تلك الأجزاء الميتة التي فقدت لحاءها، بينما من حولها، على الأفرع الأخرى، كانت تبدأ في الظهور الأوراق الخضراء الوليدة. كانت توجد جذوع كاملة، أو قواعد ضخمة لجذوع محطمة ومقطوعة، على حواف بعض الدروب، وجذورها مكسرة ومتحجرة مثل الرخام.

كان هناك شيء ما، عندما يصيبه ضوء الشمس من زاوية معينة، يلمع بقوة في مكان ما من الدرب يمكن رؤيته من هنا، ومن شدة ضوئه يؤذي العين عند النظر إليه. أعرف ما هو هذا الشيء. إنه الشبكة المعدنية لسرير قابل للطي مثبتة في بقايا حاجز بواسطة مفصلين بدائيين، ومستخدمة كبوابة دخول في مكان ما، لا بد أنه كان في زمن ما بستاناً. من

الواضح أن هيكلها الحديدي لم يأكله الصدأ بعد. في ساعة معينة من النهارِ، حينما تميل الشمس على نحو ما، يرسل ضوءًا متوهجاً، من شدته يضطر من ينظر إليه لتحويل البصر عنه سريعاً.

"ترى من اضطجع فوق تلك الشبكة؟" قفز السؤال إلى ذهني فجأة. "عندما كانت هذه البلدة الصغيرة لا تزال مسكونة، وعندما كانت هذه الشبكة لا تزال تتدلى من إطارٍ معدني، أوٍ خشبي، وتسند حشية من الصوف، تزداد هبوطاً وانضغاطاً، وربما كانوا يقومون بتنجيدها من حين لآخر، أو ربما لم يكونوا يفعلون؛ لأنٍ المنجد لم يكن يصل إلى هنا، فلم يكن ذلك العدد القليل جداً من الأشخاص ليغريه بالسفر، بآلاته الثقيلة المليئة بالمسامير المتقابلة، التي تنفش وتفكك كتل الصوف المتلبدة... أتراه شخص ما كان يرقد وحده كل ليلة على سطح الحشية التي يقل سمكها باستمرار، في شهور الشتاء الباردة، في الطابق العلوى بإحدى هذه المنازل، والتي صارت الآن أطلالاً تجتاحها النباتات، وتكمن فيها الخفافيش في سبات، وهي تتدلى من نباتات العليق، في المكان الذي كانوا يخزنون فيه في زمن ما التبن من أجل البهائم، التي كانت تمكث في الطابق السفلي، في الحظيرة، حيث كانت توجد درجات السلم الثلاث المشققة تلك التي كانت ترتقيها الأبقار، وهي تنزلق على حوافرها، تحفزها صيحات شخص ما يقف وراءها، ويضرب بيده على ظهورها، ويدفعها بقوة؛ كي يجعلها تدخل. لم تكن تلك المنازل دافئة؛ لأن المدفأة كانت توجد في الطابق السفلي، وكانت مطفأة، ولم يكن بداخلهاٍ سوى بضع جمرات سوداء وباردة. أو لعلها كانت عجوزاً تمكث وحدها، هي من كانت ترقد على ذلك الفراش. أو ربما كانا زوجين في مقتبل العمر. وكان الرجل يضطجع فوق المرأة، على تلك الشبكة ذاتها، فكان يولج داخل جسدها شبه النائم،

والدائخ بسبب البرد، وكانت ترقد دون حتى أنٍ تغتسل؛ لأن الماء في الليل يكون بارداً كالثلج، وتضع دثاراً من الصوف فوق قميص النوم المرفوع عند الجانبين، ويرتدي هو كنزة العمل الصوفية المثقوبة، والتي كان يظل يرتديها أيضاً في الليل، وتزيد سرعته في الولوج داخل جسد المرأة، التي كانت تستمر في النوم، ويصير تنفسها بين حينٍ وآخر أكثر ثقلاً، ويزداد صوته خشونة، ولم يكن واضحاً إن كان ذلك بسبب ثقل الرجل فوق جسدها، أم لأنها كانت تشخر، وحينئذ كان السرير القابل للطي يحدث صريراً أكثر قوة، وفي النهاية يسحب الاثنان الأغطية حتى مستوى رأسيهما؛ كي لا يصابا بالبرد. وهكذا في كل ليلة، كل ليلة، بينما كان شيء ما ينمو في الظلام، داخل بطن تلك المرأة شبه النائمة، والدائخة، على هذه الشبكات التي تنتشر الآن هنا وهناك؛ كي تستخدم كبوابات للبساتين المهجورة، كان هناك كائن صغير يصعد باستماتة بذيله الصغير في قناتها المهبلية؛ حتى يكون أول من يخترق غشاء إحدى البويضات، التي كانت تندفع على غير هدى داخل جسدها الغافل؛ ليمنح الحياة لأجساد جديدة، وكائنات صغيرة مذنبة، وبويضات أخرى، في وسط كل تلك الخضرة اليائسة، وذلك البرد. لأي سبب؟ لماذا؟ مثل تلك النباتات الطفيلية الموجودة في كل مكان، والتي تنمو، وترتفع بجانب الأشجار حتى تكاد تخنقها، وتستمر في الارتفاع والعلو، حتى تكاد تصل بأوراقها إلى قمة النبات الذي نمتٍ حوله، واحتجزته في سجنها. إنه الأمر ذاته الذي يحدث أيضاً للكائنات من جنسنا. كل هذه الحيوات التي تحتجز إحداها الأخرى، وهذا الإنشاء المستمر لمستعمرات؛ لاحتلال مساحات أكبر من الأرض، وسلبها من الآخرين. لماذا؟ لماذا؟ ألكي نخلد حمضنا النووي؟ ولكن ماذا لو، بعد ذلك، بعد أربعة أو خمسة أجيال فقط، والتي يمر عمرها في طرفة

عين، لم يتبق شيء من إرث الكروموسومات، والحمض النووي الأصلي في الكائنات الجديدة، التي انبعثت فيها الحياة، والتي بدورها، بعد أربعة أو خمسة أجيال، لن تخلد شيئاً من أحماضها النووية في الكائنات الجديدة التي ستمنحها الحياة! لا أعرف الأشجار، ونباتات العليق، والحشائش الوحشية، التي تجتاح كل شيء، والتي تبدو دوما متشابهة مع ذواتها، ولها دوماً الأوراق المتماثلة ذاتها، والسيقان نفسها ذات اللون القرمزي الغريب، والتي تنكسر على الفور عندما تنتزعها، بينما باقي النبات الصغير يستمر بلا توقف في النمو، وهناك أيضاً توجد على الدوام الأعمدة الخشبية ذاتها التي تعلو بهامتها نحو النور. هذا بينما يبدو الأفراد من جنسنا مختلفين بعضهم عن بعض، أو لديهم فقط مظهر مختلف، أو أننا هكذا نتخيلهم، عندما ننظر إليهم عبر حجاب الأجواء المخادعة، الضبابية، ونحاول أن نفسر من أشكال وجوههم ما يحدث في دواخلهم الغامضة، مثلما نفعل عندما نرى ذلك الزبد الذي يباغتنا، ويصعد فجأة بالقرب من الشاطئ منبعثاً من أمواج البحر المعتم في الليل..."

الفصل الثاني والعشرون

اليوم، فاجأت الطفل، بينما كان يصلي. وصلت إلى هناك بعد الظهيرة. أوقفت السيارة في المكان المعتاد. اجتزت الجذوع المكسورة، ثم سرت بمحاذاة الجدار المصمت للمنزل الصغير، حتى الباب المفتوح.

أطللت برأسي، ولكن لم يكن هناك أحد.

- «هل أنت هنا؟» سألت في تؤدة، وسط ذلك السكون المطبق.

لم أتلق إجابة.

حينئذ دخلت. خطوت بعض الخطوات داخل المطبخ. ذهبت لأنظر وراء الركن، الذي توجد فيه المدفأة.

لم يكن هناك أحد.

جلست على أحد المقاعد، وظللت أنتظر، فقد يكون الطفل قد خرج؛ ليقضي حاجته في الغابة، ثم يعود.

لكنه لم يعد.

كان يسود المكان سكونٍ مطبق.

ظللت أمكث هناك قليلاً. نهضت كي أرحل. ولكن قبل أن أخرج من الباب، خطرت ببالي فكرة أن أذهب لأنظر في الطابق الأول.

شرعت في صعود السلم الخشبي، ولا أعرف لم كنت أصعد في بطء وحذر، وأنا أحاول ألا أحدث صوتاً.

عندما وصلت لنهاية السلم، واستدرت عند الركن، وأطللت برأسي على الغرفة الكبيرة الموجودة هناك بالأعلى، رأيت الطفل فجأة.

كان يجثو على ركبتيه على الأرض، على ألواح الأرضية الخشبية العارية، بجوار فراشه الحديدي الصغير، ويداه الصغيرتان مضمومتان.

توقفت من الدهشة.

كان الطفل مستغرقاً بشدة حتى أنه لم ينتبه بعد لوجودي.

- «ماذا تفعل؟» سألته، بصوت خفيض.

أدرك فقط حينئذ وجودي.

رفع رأسه فجأة، ونظر لي في دهشة، بعيونه المستديرة.

- «إنني أصلي.» أجاب

- «لمن تصلي؟»

- «ليس لأحد.»

- «إذن فلم تصلي؟»

- «لقد علموني هكذا.»

فيما بعد، عندما كنا بالفعل نحن الاثنان في المطبخ، وكان الطفل قد وضع الدفاتر على الطاولة؛ ليؤدي الواجبات، وقد فتحها جيداً بعد أن مرر يده الصغيرة مراراً وتكراراً على الخط الفاصل بين الصفحات، وضغط بقوة، وكنت أنا أجلس بجواره، وقبل ان أرحل بقليل، خطر على بالي فجأة أن أسأله:

- «ماذا يعلمونكم في المدرسة؟ أي مواد تدرسون؟»

- «لا أعرف.»

- «أيمكنني أن أرى؟» سألته، وأنا أمد يدي قليلاً نحو الدفتر.

تركني آخذه. قلبت في الصفحات. كانت مليئة بكلمات مكتوبة بخط كبير، وصور مرسومة بألوان رصاص ملونة. في النهاية، كانت توجد علامات ودرجاتٍ كتبها المدرس باللون الأحمر. كانت درجات منخفضة جداً: ثلاثة، وأربعة، وواحد، وحتى صفر.

- «لديَّ منها الكثير!» قال لي.

نهض من على المقعد، وجرى ليأخذ دفاتر أخرى من البوفيه.

أحضرها لي. شرعت في تصفحها، بدءاً من تلك الموجودة في نهاية الكومة.

فتحت أول دفتر. اتسعت عيناي من الدهشة: فقدٍ كان مليئاً بالتمارين الأولية لتعلم الكتابة، والتي يكون مطلوباً فيها رسم خطوط رأسية مستقيمة، ولكن الخطوط في ذلك الدفتر كانت مرسومة بشكل سيئ، فهي لم تكن مستقيمة، وكانت تشوبها بقع حبر كبيرة.

- «ولكن هل ما زالوا يجعلونكم تقومون بتلك التمارين؟» سألته في ذهول.

- «ليس الآن!» أجابني. «إن هذا دفترٍ قديم.»

كنت أنظر إليه. نظر إليَّ هو أيضاً، في ذلك السكون المطلق، الذي يسود ذلك المنزل القابع في أعماق الغابة.

رأيت فجأة أن ذقنه يرتجف قليلاً، كأنه على وشك البكاء، وعيناه الكبيرتان، والواسعتان، كانت تغشاهما الدموع.

- «ما الأمر؟» سألته، وأنا أعيد غلق الدفتر.

- «لا تسير أموري على ما يرام في المدرسة!» قال لي مجدداً، وهو يخفض عينيه. «لا أنجح في تعلم أي شيء! يعطيني المعلم دوماً درجات سيئة! ورفاقي يسخرون مني!»

- «ربما لا ترى جيداً!» حاولت أن أقول شيئاً لمواساته.

«ربما أنت لا ترى السبورة جيداً. هذا يحدث أحياناً...»
هز رأسه، وهو يبذل جهداً؛ كي لا يبكي أمامي.
ـ «لا أعرف! لا أعرف! إنني لا أرى السبورة، لا أرى شيئاً!»
ـ «أتود أن أذهب لأتحدث مع المعلم؟» سألته.
اتسعت عيناه من جديد.
ـ «أوه، لا، لا!» أجابني مذعوراً.
ظللت أمكث هناك قليلاً، بينما كان الطفل يؤدي واجباته. كنت أسمعه يتنهد، من حين لآخر، وسط ذلك الصمت المطبق. كان يكتبٍ واضعاً طرف لسانه بين أسنانه، ووجهه يكاد يكون ملتصقاً بالدفتر.
عندما خرجت من المنزل، ووصلت إلى سيارتي المتوقفة في الغابة، فيما وراء تلك الأشجار الكبيرة المكسورة، وقبل أن أدلف داخل السيارة بلحظة، رأيت أن الباب المجاور لمقعد القيادة كان مكسوراً.
توقفت أنفاسي.
"ما هذا؟" تساءلت في ذهول، وأنا أفتح الباب، وأعيد غلقه؛ كي أرى إن كان لا يزال يعمل.
لم تصبٍ النافذة بأذى، ولكن الجزء السفلي من الباب كان مرضوضاً، ومقعراً للداخل، كأن شيئاً هائلاً قد هبط عليه، فضربه بشدة.
"يا تُرى ماذا حدث؟" كنت أفكر في حيرة. في هذا المكان المهجور، الذي لا يوجد فيه أحد. ربما يكون حيواناً، لكنه بالتأكيد حيوان كبير، خنزير بري... هو ما ضرب الباب، وهو ينزل سريعاً من الغابة المنحدرة، وربما يكون قد رأى السيارة في آخر لحظة، أو ربما لم يرها على الإطلاق. عندما لم يستطع أن يحول مساره، ارتطم بها بظهره المليء بالعضلات، والمغطى بالشعر، وبرأسه الكبير، وخطمه الذي

تبرز منه تلك الأنياب، قبل أن ينجح في تغيير مسار ركضه، وهو يطلق نخيراً مدوياً بسبب الألم الهائل، وسط عتمة الغابة الحالكة.

الفصل الثالث والعشرون

مساء أمس، وقفت بلا حراك وراء زاويـة تلك البناية السكنية الكبيرة، في البلدة الغارقة في النوم، وشوارعها مقفرة، وفي ذلك الجزءِ من الطريق المضاء بالكاد بواسطة مصباح يتأرجح محدثاً صريراً عند كل هبة ريح، انتظرت أن تُفتح البوابة التي تتوسط واجهة المبنى المعتمة، وأن يخرج الأطفال الموتى من المدرسة، واحداً تلو الآخر.

"كان لا بد أن تكون الآن قد فتحت بالفعل!" كنت أقول لنفسي؛ لأن الوقت كان يمر، والبوابة لم تُفتح.

كان يتردد فقط الصرير الخافت لذلك المصباح، وسط سكون البلدة الغارقة في النوم.

"أحياناً يحدث..." كنت أفكر. "عندما يسيء الأطفال التصرف، يجعلهم المعلم يبقون في الفصل عشر دقائق أخرى، حتى لو مر ميعاد انتهاء الحصة، وحتى لو كان الأطفال يتحرقون شوقاً للنهوضٍ سريعاً من مقاعدهم، والخروج..."

فُتحت البوابة أخيراً. خرج الأطفال، بمرايلهم السوداء، وحقائبهم المدرسية.

ساروا في صمت، كل منهم في طريقه، دون أن يتبادلوا التحية.

عندما رحلوا جميعاً، خرجت من وراء الزاوية، وأنا أكاد أركض؛ كي أصل إلى هناك، قبل أن تنغلق البوابة من جديد.

عبرت الطريق الصغير.

كانت البوابة لا تزال مفتوحة، ولكن كان يبدو لي أن مصراعيها قد بدآ بالفعل يتحركان.

كانت توجد عتمة بالداخل، فلم يكن من الواضح من الذي كان يحركهما.

ارتقيت بسرعة درجات السلم القليلة. دلفت إلى الداخل، وقلبي يخفق بشدة، وسط العتمة.

لم أكن أرى شيئاً، فقد كان هناك فقط ذلك الضوء الخافت الذي كان يتسلل من مصباح الشارع، وكان يدفع بحزمته الضوئية الضعيفة حتى داخل الردهة، فيُظهر معالم منصة قديمة موضوعة أمام المدخل، وبداية مطلعي درج على الجانبين، بدرابزين حديدي.

- «إنني أغلق الآن، ماذا تريد حضرتك؟» سمعت صوتاً يتحدث إليَّ في العتمة، ولكن بنبرة هادئة، وجيدة.

التفتُّ، فلمحت فيِ الضوء الخافت معالم رجل قصير، وبدين، يرتدي مريولا.

"لعله يكون حارس المبنى..." فكرت.

- «ماذا تريد حضرتك؟» سألني الصوت مجدداً، ولكن بلطف.

- «أود أن أتحدث مع المعلم.» قلت، وأنا أقترب منه في الظلام.

- «أي معلم فيهم؟»

- «لماذا تسألني هذا السؤال؟ كم يبلغ عددهم؟»

- «يوجد معلمان: معلم الصباح، ومعلم المدرسة المسائية.»

- «معلم المدرسة المسائية.»
- «لقد رحل بالفعل.»
- «لكنني كنت أقف هناك أمام البوابة! لم يخرج أحد آخر غير الأطفال!»
- «المعلمون يخرجون من البوابة الخلفية الصغيرة.»

دنوت أكثر من الحارس. الآن، بعد أن اعتادت عيناي قليلاً على الظلام، تمكنت من رؤية رأسه على نحو أفضل: كان عريضاً، وأصلع، وكان له وجه قروي عجوز ومبتسم.

- «عن أي شيء كنت حضرتك تريد التحدث مع المعلم؟» عاد يسألني.
- «كنت أريد التحدث معه عن طفل ميت.»
- «أي طفل ميت؟» سألني، وهو يبتسم في الظلام. «أطفال المدرسة المسائية كلهم ميتون.»
- «إنني لا أعرف اسمه. ولا حتى هوِ يعرفه. لا بد أنه قد نسيه. أخبرني أن زملاءه ينادونه "ستوكّو".»

رمقني الرجل، وهو يقتربٍ مني بشدة، في الظلام، بوجهه العريض المائل، ويضيق قليلاً عينيه المصابتين بطول النظر؛ كي يراني أفضل.

- «آه، أجل، أجل! ستوكّو!» ابتسم.

في اللحظة التالية استأنف غلق مصراعي البوابة.

- «يجب عليَّ الآن أن أغلق بالفعل» قال. «ولكنٍ فلتمكث حضرتك قليلاً، إن كنت تريد. ليس المعلم موجوداً، ولكن يمكنك التحدث معي، حتى إن كنت أنا فقط الحارس.»

أغلق البوابة تماماً. ازداد الظلام كثافة الآن. كان ينسل فقط قليل من الضوء من هلال زجاجي صغير موجود فوق المدخل.

"لديه حق بالتأكيد ذلك الطفل في أن يقول إنه لا يرى شيئاً!" خطر ببالي فجأة، بينما كان الحارس ينهي إغلاق

البوابة، فاوصدها جيداً بمزلاجين صغيرين يدخلان في الأرضية، ثم بمزلاج آخر أكبر، وقفل، فأدار فيه المفتاح، وهو يتمتم بصوت خافت محصياً عدد مرات غلقه؛ حتى لا ينسى إحداها.

وضع المفتاح الكبير في جيب المريول.

- «فلتأت معي!» قال لي في النهاية، وهو يتأبط ذراعي. «سأريك المدرسة.»

- «لكنني لا أرى شيئاً!» قلت له.

- «سترى، سترى...» قال بوجه بشوش، بينما كنا بالفعل نصعد مطلع الدرج.

- «يكفي أن تعتاد العين على الظلام. ثم إنه ليس حالكاً تماماً، فهناك دوماً قليل من الضوء، الذي يأتي من الخارج، من المصباح، وينسل عبر الستائر، من الفتحات الموجودة في وسطها، من بين طرفيها اللذين لا يمكن إغلاقهما بشكل كامل أبداً، حتى إذا جربنا تقريبهما مرتين، أو ثلاث مرات متتالية، بقوة أكثر، في محاولة لجعلهما ينطبقان تماماً، أحدهما على الآخر...»

كان يلهث قليلاً، وهو يصعد السلالم مستنداً على ذراعي.

- «لم يعد ينبغي علي العمل بهذه المهنة» كان يقول لي، أثناء صعودنا. «لكنني أعمل بها منذ وقت طويل جداً، فسأستاء كثيراً إذا توقفت عنها... لقد التحقت بالعمل هنا، عندما كان عمري يزيد عن عمر صبي بقليل. كنت أحياناً ألعب أنا أيضاً مع الأطفال. عندما كان الجرس يدق، ويروونني وأنا أعبر الممر، كانوا يجرون نحوي، ويجذبونني من كل جانب بأذرعهم الصغيرة...»

وصلنا إلى الطابق الأول، وسلكنا الممر المعتم، الذي تنفتح عليه أبواب الفصول، كان يبدو لي أنني أرى في ذلك الضوء القليل، الذي كان ينسل من بين أطراف الستائر، التي لم تكن

محكمة الغلق.

كنتِ أنظر إليه، من حين لآخر، بينما كان يستمر في السير متأبطاً ذراعي.

توقف لحظة، قبل أن يشرع في الحديث من جديد.

- «يا حارس! يا حارس! كانوا ينادون من الفصول، من هنا وهناك، عندما كان يجب إعادة ملء دويات الحبر، في تلك الدكاك الخشبية التي كانت توجد حينها، وكانت تمتلئ بالثقوب، التي أحدثتها الرؤوس المدببة للبراجل. كان الحبر ينفد باستمرار، فكان يجب عليَّ دوماً أن أهرع بذلك الإبريق من الصفيح المليء بالحبر، لإعادة ملء الدويات من جديد. كانوا يمكثون ليشاهدوني، وهم يعضون بقوة على شفاههم؛ كي لا تنفلت ضحكاتهم، ويلكزون بعضهم البعض بالمرافق، بينما كان الحبر يخرج من فوهة الإبريق، وينسكب ليملأ تلك الدويات الزجاجية، التي كانت توجد وسط الدكاك، على الحافة العلوية. ولكنه في الحقيقة لم يكن ينفد بالفعل، فقد كانوا هم من يملؤون الدويات بقطع من الورق النشاف؛ حتى يجعلوه يجف على نحو أسرع، حيث إنهم كانوا يستمتعون برؤيتي، وأنا أصل بذلك الإبريق من الصفيح؛ كي أعيد ملأها من جديد. كانوا يغمسون رؤوس أقلام الحبر في تلك العجينة من الحبر، والورق النشاف، فكان يتبقى دوما ذلك الزغب في الكلمات، التي كانوا يكتبونها في الكراسات، وكانوا يحاولون إزالتها بأصابعهم من طرف رأس القلم، قبل أن يعاودوا الكتابة، وكانوا أيضاً يفصلون رأس القلم عن أنبوبِه؛ كي يزيلوا الزغب على نحو أفضل، فكانت أصابعهم دوماً سوداء كلها من الحبر. كانوا يبدلون رؤوس الأقلام، فيخرجونها من علبها الصغيرة. كانت هناك رؤوس أقلام مصنوعة من النحاس، أو من الحديد الصلب، أو مذهبة، وكانت لها أشكال عديدة: البرج، والحربة، والعصا الصغيرة... وكان لكل

طفل أشكاله المفضلة. كانوا يسمونها بالضبط هكذا: البرج، والحربة، والعصا الصغيرة، فكانوا يذهبون إلى بائع الأدوات المكتبية، ويقولون له: أعطني لو سمحت حربة، أو ثلاث عصي صغيرة، أو برجين... فكان بائع الأدوات المكتبية يذهب ليتناول العلبة الصغيرة المطلوبة. أيها الحارس! أيها الحارس! لقد نفد الحبر! هكذا كانوا ينادون من الفصول، بأصواتهم الصغيرة تلك. وكنت أنا أهرع إليهم... كنت في ذلك الوقت حارس الصباح، عندما التحقت بالعمل هنا. حسنا، باختصار، فلنقلها بصراحة... عندما كنت حياً.»

توقفت أنا، هذه المرة. ولكن يده ضغطت على ذراعي بقوة، وبود، وهو يستأنف السير في الممر.

كنت أسمع صوتاً خافتاً يتناهى من فمه، فالتفت نحوه. رأيت بعيني اللتين اعتادتا أكثر على الظلام، أنه كان يسحب لأعلى ولأسفل بلسانه الصف العلوي من طقم الأسنان، ربما لأنها عادة لديه، أو لأنه كان يضايقه.

- «أخبرني حضرتك كيف يمكنني التوقف...» استأنف الحديث. «إنني يسعدني وجود الأطفال من حولي! ولذا استمررت في العمل كحارس...»

وصلنا إلى ركن من الممر، كان يمتد أمامنا، وبه أبواب صغيرة عديدة أخرى، والتي تكهنت بأن وراءها توجد السبورات والدكاك.

- «أين يوجد فصل ذلك الطفل؟» سألت في تردد ذلك الحارس الميت، في الظلام.

- «أتعني فصل ستوكّو؟ سأريه لك الآن... انظر، كان ذلك الفصل! ولكن الدكاك والسبورة لم تعد هي ذاتها، بالطبع...»

توقفت أمام الباب.

- «لماذا تقول كان؟ إنني أتحدث عن الآن! فصل الطفل الذي يأتي الآن إلى المدرسة المسائية!»

لم يرد. كنت أسمع صوت يده، تلك التي لم يكن يتأبط بها ذراعي، وهي تحك رأسه الكبير الأصلع في الظلام.

- «كان طفلاً متميزاً...» استأنف الحديث. «لا أعرف لم، لكنه كان متميزاً. كان منغلقاً على نفسه. لم يكن أحد يفهم فيم كان يفكر قط. هل هو طفل؟ هل هو حقاً طفل؟ كنت أتساءل. ليس لأنه لم يكن يتصرف كطفل، بل بالعكس لأنه كان يفعل ذلك أكثر من الآخرين جميعهم. كان عليٍ هذا النحو طفلاً لم يكن يبدو حتى أنه طفل. كان يظل منعزلاً. كان يبدو لي كأن الأطفال الآخرين لم يقبلوه، كأنه شيء مختلف، كان يمكث هناك، ولكنه كان في مكان آخر، رغم أنه كان يحاول أن يقيم صداقات، ويلعب مع الآخرين، عندما كانوا يريدون. لكنه لم يكن ماهراً في اللعب. كان يبدو كأنه لا يلعب. كان يبالغ. كان يبدو كأنه لم يكن يركز تماماً في اللعب، ولكنه رغم ذلك، كان في نفس الوقت ينطلق بحماس في اللعبة لدرجة أنها كانت تبدو بالنسبة له كأنها ليست مجرد لعبة، ولكن مسألة حياة أو موت. كان يتعب سريعاً، وكان وجهه يصير أحمر اللون مثل النار، وكان يتعرق أكثر من الآخرين. عندما كان ينطلق في لعبة، لم يكن يستطيع التوقف، فكان الآخرون يهزونه من كتفيه؛ حتى يجعلوه يفهم أن اللعبة قد انتهت، لكنه لم يكن يفهم ذلك، لم يكن يقبل ذلك. كانوا يرحلون، ويتركونه وحيداً. أتعرف... إننا نتعلم أن نكون على دراية جيدة بالأطفال، برؤية العديد منهم، والعيش وسطهم...»

وصلنا إلى نهاية ذلك الجزء الأخير من الممر أيضاً. عدنا للوراء.

- «لم يكن شاطراً في المدرسة. كان يأخذ علامات سيئة. وكان المعلم أحياناً يرمي الكراسات في وجهه، ويجعله يقف وراء السبورة...»

- «أجل، هذا صحيح! جعله يقف وراء السبورة!»

- «أنـا كنت أراه، وأنـا أمر في الممر، أمـام الأبواب المفتوحة...» كان الحارس يستمر في الحديث، وهو مستغرق تماماً في حكيه، حتى أنه كان يبدو كأنه لم يسمعني، «لأن السبورات كانت توضع بشكل مائل، في آخر قاعات الدرس. كان هو يرفع رأسه، الذي كان يبقيه منخفضاً، عندما كان يسمعني وأنا أمر، وكانت نظراتنا تتلاقى، وكان ينظر لي بعيونه تلك الكبيرة، والمستديرة، والمغرورقة بالدموع...»

- «أجل، أجل...» كنت أهمس.

- «ولكن كان يوجد شيء ما لم يكن يهزمه فيه أحد...أثناء الفسحة بين الدروس، كانوا من حين لآخر ينظمون لعبة، والتي لا أعرف إن كانت بالفعل لعبةً. باختصار، عندما كان الجرس يدق، كانوا يهرعون جميعاً إلى ذلك المكان هناك، انظر، حيث يتسع الممر قليلاً قبل الحمامات. كان يوجد في ذلك الوقت طاولة نجار، من ذلك النوع المزود بمِلزمة خشبية. لا أعرف من الذي وضعها هناك، وماذا كان يفعل بها... كان الأطفال يجرون إلى هناك؛ ليأكلوا الساندويتش الذي جلبوه من المنزل، أوِ السكياتشاتينا(١) التي اشتروها من الخباز، الذي كان موجوداً بجوار المدرسة، قبل أن يدخلوا، ويخرجوها من ورقتها المشبعة بالزيتٍ. كان بعض الآخرين يأكلون ثمرة فاكهة، أو لا يتناولون شيئاً، لأنهم كانوا يستعدون للعراك...»

كنا متوقفين، على ما يبدو لي، وكنت أنظر إلى رأس الحارس الكبيرة الأصلع، في الظلام.

- «كانت اللعبة تتمثل في هذا: كان طفل يصعد ليجلس بساقين متباعدتين على كتفي طفل آخر أقوى، يمسك ساقيه

(١) السكياتشاتينا هي: نوع من الخبز المقرقش الجاف طيب الرائحة ويتم تناولها كوجبة خفيفة.

جيداً بذراعيه، وهناك وهو في الأعلى، كان يتعارك مع طفل آخر، هو أيضاً يعتلي مطيته. كان الفرسان يجريان نحو أحدهما الآخر، ويتصادمان. وكان كل من الفارسين يحاول أن يمسك الآخر بقوة بيديه، وأن يطرحه أرضاً، بمفرده أو بمساعدة الفرس. لم تكن المهارة تكمن في عدم الوقوع، بل في أن يكون الفارس هو الأسرع في الإمساك بقوة بالآخر من ذراعيه، ورأسه، وأن يطرحه أرضاً، ربما إلى الخلف، عندما كان يوجد تفاهم جيد بين الفارس والفرس، وكان الفرس يدعم من أسفل هجوم فارسه. عندما كان ذلك الطفل يعتلي كتفي طفل آخر، يلعب دور الفرس، ويشرع في العراك، كان يتحول، ويصير شخصاً لا يقهر. ذات مرة، أوقع فارساً آخراً على الأرض بقوة، وأمسكه بشدة من أذنه، لدرجة أنه قطع جزءًا منها، اضطروا لخياطته؛ ليعيدوا وصله بالأذن. وفي مرة أخرى، وهي المرة الوحيدة التي رأيته فيها يقع، سقط رأسه لأسفل، فارتطم بملزمة طاولة النجار، وانكسرت إحدى أسنانه...!»

- «أجل، أجل، هذا صحيح، لديه سن مكسورة!»

- «لكنه لم يلمس الأرض، ظل متدلياً ورأسه لأسفل من على فرسه، الذي كان رغم هذا يمسك بساقيه بقوة وثبات بذراعيه. ثم بعد ذلك سحب نفسه لأعلى. عاد يمتطي فرسه، واندفع في غضب يهاجم الفارس الآخر، وطرحه أرضاً.»

استأنفنا السير الآن، على ما يبدو لي؛ لأنني لم أعد أرى أمامي ذلك الرأس الكبير، وذلك الوجه العريض الطيب. كان لا يزال يتأبط ذراعي، وكانت يده تشد عليَّ أحياناً، ثم ترتخي، ثم تعود وتشد عليَّ من جديد بقوة من الانفعال، في بعض نقاط الحكاية.

- «لماذا كانوا يسمونه ستوكّو؟» قلت ببعض التردد.

ابتسم الحارس في الظلام، على ما يبدو لي.

- «لأنه كان يأكل معجون تثبيت الزجاج(٢)» أجاب. «في ذلك الوقت، كان يتم تثبيت زجاج النوافذ في إطارها بواسطة المعجون. عندما كان يجب تغيير زجاج انكسر، أو كان يهتز داخل الإطار أكثر من اللازم؛ لأن معجون التثبيت فيه قد جف وتفتت، كان يأتي مُرَكِّب الزجاج لإبدال الزجاج، ووضع معجون جديد. كان يخرج علبة المعجون من حقيبته الجلدية، ويقطع منه أجزاء صغيرة، ويفردها بعناية على الإطار بواسطة مكشطة؛ حتى يقوم بتثبيت الزجاج. ولكن كان المعجون سرعان ما يختفي. كان ينبغي إحضار مُرَكِّب الزجاج باستمرار؛ لوضع معجون جديد، وإلا كان الزجاج يهتز، ويكون عرضة أكثر للكسر عند فتح وغلق النوافذ. لم يكن يُترك الوقت الكافي ليجف. عندما كان لا يزال طرياً، كانوا يرون دوماً آثار بصمات أصابع صغيرة على سطحه المفرود بالمكشطة؛ لأن الأطفال كانوا يستمتعون باقتطاع أجزاء منه؛ كي يصنعوا منها كرات صغيرة، أو أشياء أخرى. أما هو على العكس فلم يكن يفعل ذلك، كان يقطع منه جزءًا، ثم يأكله. لهذا السبب كانوا يسمونه ستوكو!»

ضحك قليلاً. كنت ألمح بالكاد في الظلام الصف العلوي من طقم أسنانه، والذي كان منفصلاً قليلاً عن اللثة.

- «هل كان يأتي أحد ليأخذه، عند الخروج من المدرسة؟» سألته فجأة.

ظل صامتاً للحظة، وهو يفكر.

- «كان يأتي أحياناً حيوان ليأخذه.»

- «حيوان؟ أي حيوان؟»

- «كان يبدو أنه كلب، لكنني لا أعرف إن كان كلباً... كان

(٢) كلمة ستوكّو stucco في الإيطالية تعني معجون تثبيت الزجاج.

يظل جالساً أمام البوابة، في الناحية الأخرى من الشارع، في انتظاره. كنت أراه عندما كنت أفتح البوابة، يجلس هناك دون حراك، بأذنين منتصبتين، وعينين منتبهتين. كان يحرك خطمه بشكل مستمر يميناً وشمالاً؛ كي يتعرف عليه وسط الأطفال الآخرين، الذي كانوا يشرعون في الخروج. كانا يرحلان معاً، هو وذلك الذي هو نوعاً ما كلب، فكانا يسيران جنباً إلى جنب، في صمت.»

- «ولكن، ألم يكن يأتي أي أحد آخر ليأخذه قط؟ فقط حيوان؟» سألته مرة أخرى، بصوت بدا لي أعلى من اللازم.

ظل صامتاً بضع لحظات.

- «أحياناً كان يأتي ليأخذه أيضاً شخص ما...»

- «آه، نعم؟ شخص ما؟ ومن كان هو؟»

لم أفهم إن كان قد أجابني، لم أسمع.

بدا لي كأنه التفت نحوي، ونظر لي بعيون مغلقة، واضعاً يديه الاثنتين على رأسه في الظلام.

من المحتمل أننا كنا ننزل الدرج، لأنني لم أكن أجد الأرض من تحت قدمي من حين لآخر، بين درجة سلم وأخرى.

وصلنا إلى البوابة الصغيرة، التي تؤدي إلى ما وراء المبنى. فتحها الحارس. سمعته يحييني بصوته الطيب، في تلك العتمة التي اشتدت كثافة. قبل أن أخرج، بدا لي أنه قد داعب عنقي من الخلف، من أعلى، بيده الكبيرة، في الظلام.

بينما كنت عائداً إلى المنزل بالسيارة، في وقت متأخر من الليل، عند إحدى المنعطفات، ارتطمت حشرة كبيرة بالزجاج الأمامي، وانسحقت. رأيتها، وهي تندفع تاركة مسارها المتعرج، بعد أن جذبتها أنوار مصابيح السيارة، قبل أن ترتطم بلحظة بالجدار الزجاجي للسيارة المسرعة في الظلام، ثم رأيت أحشاءها الداخلية الصفراء، وهي تنساب في خط على طول الزجاج.

الفصل الرابع والعشرون

"من يدري إن كانت السماء لديها سماء أخرى فوقها؟" أتساءل أثناء جلوسي أمام المنحدر الصخري. "تلك السماء التي تُرى من هنا، على الأقل من هذا المضيق، فوق هذه المجموعة من المنازِل، والأطلال المهجورة. ومن يدري إن كان النور هو أيضاً يكمن داخل نور آخر؟ وعلى أية صورة سيكون هذا النور، إن كان لا يمكن رؤيته؟ وإن كان حتى النور لا يمكن رؤيته، فأي شيء آخر يمكن رؤيته؟ ومن يدري إن كانت المادة التي يتكون منها الكون، ذلك القدر القليل الذي نستطيع إدراكه في بحر المادة، والطاقة المظلمة(٣)، لا تكمنٍ بداخل مادة أخرى أكبر منها بكثير جداً، وإن كانت أيضاً المادِة، والطاقة المظلمة ليستا بداخل إظلام أكبر منهما بكثير جداً؟ ومن يدري إن كان انحناء الزمكان(٤)- هذا إذا كان هناك

(٣) في علم الكون وفيزياء الجسيمات، الطاقة المظلمة هي: أحد الأشكال الافتراضية للطاقة التي تملأ الفضاء، والتي تملك ضغطاً سالباً، وتعد المحرك الرئيس لتوسع الكون.

(٤) الزمكان: (الزمان - مكان) أو الزمان المكاني، وهو مصطلح حديث في الفيزياء منحوت من كلمتي الزمان والمكان للتعبيرِ عن الفضاء رباعي الأبعاد الذي أدخلته النظرية النسبية ليكون فضاء الحدث بدلاً من المكان المطلق الفارغ في الميكانيكا الكلاسيكية ونظرية الكم.

انحناء، وكان هناك مكان، وكان هناك زمان - ليس هو أيضاً بداخل انحناءٍ أكبر، ومكان أكبر، وزمان أكبر، والذي يكون قد أتي مسبقاً، أو لم يأت بعد؟ من يدري لم سارت الأمور على هذا النحو، في هذا العالم؟ هل الأمر يسير على هذا النحو في كل الأماكن الأخرى، في هذه الفوضى العارمة من الأنوار الصغيرة، التي تثقب الظلام، في هذه الليلة الباردة، ووسط العتمة العميقة؟ أتراه يكون هناك شخص ما يرانا الآن من إحدى تلك الكواكب، التي تدور حول تلك الكتل من الغاز المشتعل، والتي تبدو لنا من بعيد نجوماً بيضاء، مثلما يظن ذلك الرجل، الذي ذهبت لأجده في تلك الحظيرة، وسط تلك البهائم، التي سافرت بصورة خيالية في الفراغ الفوقي؟ ترى ما هو شكل حياتهم؟ لم يرحلون في جولات عبر الكون داخل تلك البيضات المضيئة، التي لا تغطيها قشرةٍ؟ تُرى هل حياتهم تعيسة مثل حياتنا؟ هل بالنسبة لهم أيضاً، الألم والشر هما فقط ما يلهي عن التعاسة - على الأقل بضع لحظات؟ - هل لديهم هم أيضا ذلك الحلم القصير القاسي المسمى بالحب؟ أتراه يكون هو أيضاً ذلك الشيء، الذي يكمن داخل شيء ما موجود في مكان آخر؟ هل يا تُرى يوجد شخص آخر وسط كل هذه الكرات الغازية، التي تشتعل في العتمة العميقة، وهذه التكتلات التي تبرد وتتكلس، بأسطحها المعدنية المليئة بالجروح، وأثر التصادمات، وسط كل هذه الكتل الميتة التجريبية، التي تحتشد في تلك الدوامة، التي اسميناها الفضاء؟ ألفا القنطور، النجم الأقرب من شمسنا، يوجد على بعد أربع سنوات ضوئية. سحابة مجلان الكبرى، أقرب مجرة من مجرتنا، توجد على بعد مئة وخمس وسبعين ألف سنة ضوئية من نظامنا الشمسي. وأنا هنا، أجلس على هذا الكرسي الحديدي، الذي يغوص باستمرار في التربة، في هذا المكان الموجود خارج العالم، على بعد مماثل من كل شيء، ومن المكان، ومن الزمان، ومن حياتي، ومن

موتي..."

أظن أحياناً أنه لم يعد هناك أحياء في باقي العالم. لكنهم موجودون. ففي عصر اليوم، بينما كان لا يزال هناك ضوء، رفعت عيني فجأة، فرأيت خطاً أبيض مستقيماً تماماً كان يعبر السماء، ويمتد وسط زرقتها الصافية، رسمته طائرة، من شدة بعدها لا يُسمع دويها في الفضاء الشاسع.

الفصل الخامس والعشرون

يتغير العالم الآن أمام عيني. لا تزال الأرض باردة. تتغضن أوراق الشجر، وتسقط. تبقت منها أوراق متناثرة هنا وهناك، تتدلى من جدعة فرع. تتجرد الأشجار من أوراقها أكثر فأكثر. لم يعد يمكن تمييز الأشجار الحية من الميتة.

أسير على بساط من أوراق الشجر المتفحمة، التي تحدث خشخشة تحت ثقل خطواتي. تغطي الدروب بالكامل. أسمع طقطقة عروقها، وأنسجتها الميتة، وهي تتكسرٍ تحت ثقل جسدي الذي يطأ الأرض. لم أعد أسمع أصواتاً في الغابة. بدأت الحيوانات بالفعل، أو أنها تستعد للبدء، في البيات الشتوي. تحفر جحورها الصغيرة في الأرض الباردة، التي تشتد برودة في الليل، وتتغطى بالفعل بندف الثلج الأولى الخفيفة. تدع الحيوانات ذلك الغشاء الأبيض، الذي يذوب مع أول أشعة لشمس النهار. وتحفر، ورؤوسها محنية لأسفل، بمخالبها، وبأسنانها؛ كي تصل إلى أعماق الأرض، حيث تبقى قليل من الدفء.

هذا الصباح، في أطلال إحدى المباني، فاجأتُ مجموعة من الخفافيش كانت تنام في سبات. كنت أسير عبر الدروب الصغيرة المهجورة، وبين هذه الجدران المغطاة بالنباتات

المتسلقة، وهذه الخضرة الجافة، والأشجار التي نمت وسط الحجارة، وبين هذه السلالم الصغيرة المفككة الصاعدة إلى أبواب منازل مهجورة. مررت أمام إحدى الأطلال، التي لم يسبق لي أن دخلت فيها من قبل. كان ذلك أمراً غريباً، فهذا المكان شديد الصغر، لكنني رغم ذلك لا زلت لا أعرفه كله! دفعت بقدمي الباب الذي كانت مفصلاته مفككة. انفتح الباب، فدخلت. كانت العتمة تسود تماماً في الداخل، حيث لم تكن هناك ولا حتى نافذة واحدة. فقط جدران حجرية، وسقف من الألواح الخشبية في الأعلى. رأيت أمامي فجأة عدداً كبيراً من الخفافيش، التي كانت تقف مدلية رؤوسها لأسفل، وتحدق فيّ بعيون مغلقة. كان هناك قليل من الضوء، والذي كان ينسل تقريباً من البابٍ، الذي فتحته تواً، رغم أنه كان يبدو أن الظلام يخيم تماماً، ما لم يكن يخرج مباشرة من عيونها المذعورة، بعد أن استيقظت من سباتها. مرت لحظة واحدة. كل تلك الأجساد التي كانت حتى اللحظة السابقة تقف، وهي تدلي رؤوسها لأسفل، وتلتف في أغشية أجنحتها الجلدية السوداء، وتتعلق بمخالبها بعوارض السقف الخشبية القديمة، والنتوءات البارزة في الجدران، أخذت فجأة تطير مذعورة، بحثاً عن مخرج. ارتميت أنا على إحدى الجدران. كانت أجسادها السوداء، التي أصابها الجنون، تضرب الجدران والسقف. عثرت بعد ذلك على فتحة الباب الصغير، الذي كنت قد دخلتُ منه، فطارت، وهي تصطدم بي من كل ناحية، وخرجت في دوامة من الأجنحة العارية والعيون.

قبل أن أذهب للنوم، تأملتٍ مطولاً ذلك الضوء الخافت. بدا لي أنه قد ازداد تلألؤه قليلاً؛ لأن الهواء كان أكثر برودة، والسماء كانت أكثر صفاءً.

غيرت ملاءة وأغطيةٍ الفراش، وكيس الوسادة. وضعت الغطاء الأثقل. ثنيت جيداً الملاءة العلوية. ثنيت أيضاً طرف

الغطاء والملاءة، من ناحية واحدة، قبل أن أخلع ملابسي، وأرتدي البيجامة الثقيلة، التي أخرجتها من خزانة الأدراج الخشبية، التي تحدثُ بعض الصرير بسبب تغير الجو؛ كي أجد كل ذلك مرتباً على هذا النحو، قبل أن أستدير نحو الفراش، وأدخل فيه، كأن تلك اللفتة لم أقم بها أنا، بل شخص آخر غير موجود، هو من قام بتلك اللفتة الخفية للترحيب بي.

حان الليل الآن. أمكث بعيون مفتوحة في الظلامِ، على ما يبدو لي. لكنني لا يمكنني الجزم إن كنت مستيقظاً، أم نائماً. حدثت منذ قليل بعض الهزات الأرضية لكنها كانت خفيفة. هزات خفيفة كانت تصعد من الأعماق ولكن من شدة ما كانت خفيفة، لا يمكنني القول إن كانت أيقظتني من النوم، أم أنها على العكس جعلتني أنام.

بدا لي حتى أنني ابتسمت قليلاً، وأنا أميز صوتها العزيز في الظلام.

الفصل السادس والعشرون

اليوم دعاني الطفل مجدداً لتناول الطعام معه.
رحلت من المنزل مبكراً، لكنني وصلت إلى هناك متأخراً؛ لأن الثلج عاد يتساقط، وكان الطريق المؤدي إلى التل الآخر مغطى بطبقة بيضاء، فكان يجب التقدم فيه ببطء وحذر؛ كي لا تنزلق عجلات السيارة عند المنحدرات والأخاديد، وخاصةً في ذلك المدق، الذي يمر وسطَ الغابة، وعلى ذلك الجسر الخشبي الصغير، الذي صار زلقاً بسبب طبقة الجليد الخفيفة التي تغطيه.

عندما وصلت، كان الطفل يقف عند الباب، وينظر للخارج، كأنه ينتظرني.

قبل أن أدخل، أنزلت قلنسوة سترتي الثقيلة، ونفضت الجليد عن كتفيَّ بيدي؛ كي لا أحمله إلى داخل المنزل.

جرى إلى الداخل، وهو سعيد، أو هكذا على الأقل بدا لي.

ذهب نحو المطبخية، وصعد على الصندوق، وسحب قدراً.

- «أترغب في المكوث لتناول الطعام؟» سألنيٍ عندما دخلت، ونزعت عني السترة الثقيلة، ونفضتها قليلاً بالقرب من الباب.

- «أجل، ولكن هذه المرة سأطبخ أنا!»
لم يعارضِ.
- «حسناً!» قال، في هدوء.
ترك لي المكان المجاور للموقد. ذهب ليجلس على درجة من درجات السلم الخشبي.
نظرت إليه.
- «لقد احمرت ركبتاك. أأنت متأكد من أنك لا تشعر بالبرد بذلك السروال القصير؟»
- «لا، لا.» أجابني. «لقد اعتدت ذلك.»
وضعت كيس المشتريات الصغير على المسطح المجاور للحوض.
كان الطفل لا يزال جالساً على أول درجة من السلم، وكان ينظر إليَّ بعيونه المستديرة، دون أن يتحدث، بينما كنت أخرج من الكيسِ الأشياء التي اشتريتها من البلدة.
كنت أنا أيضاً أنظر إليه، من حين لآخر، ملتفتاً برأسي، وأنا أقف أمام الموقد.
كنت أقلب الأرز بالملعقة حتى لا يلتصق بالقدر، قبل إضافة الماء، والتوابل التي اشتريتها.
ظل الطفل يمكث في صمت، وينظر إليَّ، وهو يجلس على درجة سلمه.
- «هل تحب البِيض؟» سألته.
- «أجل، كثيراً!» أجاب.
كسرت أربع بيضات، اثنتين من أجلي، واثنتين من أجله، على حافة المقلاة، التي كان الزبد يذوب فيها.
نهض الطفل. تناول مفرش مائدة مغسولاً ومكوياً. بدأ يجهز طاولة الطعام، فصعد على الصندوق؛ كي يأخذ الصحون، وأدوات تناول الطعام.
أطفأت النار على الأرز، وسكبته داخل السلطانية الصغيرة،

وهو لا يزال ساخناً. بشرت فوقه الجبن. شرعت في خلطهما بملعقة. كان الدخان لا يزال يتصاعد منه، وأنا أضعه في الأطباق. كان الطفل ينظر إليه، بعيون مفتوحة على وسعها، وهو يلعق شفتيه.

شرعنا في تناول الطعام، فأكلنا الأرز أولاً، ثم البيض. كان الطفل يقطع البيض من وسطه بالشوكة؛ حتى يرى الصفار وهو يسيل في الطبق. أخرجت من الكيس البرتقال، الذي ادخرته؛ كي يكون مفاجأة له، في النهاية.

- «كم هو لذيذ البرتقال!» صاح الطفل، عندما رآه.

كنت أتأمله، وهو يقشره بأصابعه الصغيرة، مستعيناً بأظافره.

- «ماذا فعلت بيديك؟» سألته؛ لأنهما كانتا تبدوان في حالة سيئة جداً.

كانت أظافره الصغيرة متكسرة، وراحتا يداه كانتا مليئتين بالبثور، والخدوش الصغيرة، وكان جلد أنامله منسلخاً.

- «إنني أقوم بعمل.» أجاب.

- «أي عمل ذلك؟»

أخفض رأسه. ابتسم، أو هكذا على الأقل بدا ليّ، ولكن ربما هو فقط شد شفتيه للخلف.

- «إنني أجهز، وأرتب ذلك المنزل الصغير الموجود هناك أمام منزلي...» أجاب بعد برهة.

كانتِ هناك رائحة برتقال طيبة تسري في المطبخ.

- «ألقي بالأنقاض والحجارة في الخارج» استمر يتحدث. «أغسل الأرضية الخشبية...»

- «ولكن لِم تفعلٍ ذلك؟» سألته، وأنا أحبس أنفاسي.

تورد وجهه قليلاً، ولم يجبني.

كان باب الشرفة الزجاجي مغطى بقطرات ماء كثيفة؛ بسبب الفرق بين درجة الحرارة في الخارج، وبينها في

الداخل.

لم ينبس أحدنا بكلمة.

- «هل أشعل المدفأة!» صاح فجأة، وهو يقفز نازلاً من المقعد.

نهضت أنا أيضاً. شرعت في رفع المائدة. طويت المناديل الصغيرة، والمفرش، ووضعتهم داخل الدرج. ألقيت بالفضلات في داخل الكيس الموجود تحت الحوض. بدأت في غسل الصحون القليلة، والقدر، والمقلاة، وأدوات الطعام.

في الوقت نفسه، كان الطفل يُخرج بمجرفة صغيرة الرماد، والجمرات المتفحمة من أعماق المدفأة، ويأخذ أفرع صغيرة من حزم الحطب، ويضعها على شكل هرم، ويدفع تحتها ببعض الأكياس الورقية المكوّرة.

عندما انتهيت من غسل الصحون، ذهبت إلى هناك أنا أيضاً. كان يضع على قمة الكومة قطعتين من الحطب أكبر قليلاً من القطع الأخرى.

قبل أن يشعل النار في الورق بعود ثقاب، جرى ليأخذ المقعدين، اللذين ظلا بجوار الطاولة، فأحضرهما واحداً تلو الآخر، وهو يرفعهما بقوة ذراعيه الصغيرتين. وضعهما أمام المدفأة.

جعلني أجلس على أحد المقعدين. ثم أشعل المدفأة.

ارتفعت النار فجأة من الأكياس الورقية المكوّرة إلى الفروع الأولى، التي أخذها من حزم الحطب، والتي بدأت بالفعل تصدر خشخشة. ظلت النار ترتفع أكثر لأعلى، حتى لمست قطعتي الحطب الكبيرتين، المليئتين بالتعرقات، والتشققات، مخلفة وراءها قليلاً من الدخان، الذي كان يختفي داخل المدخنة.

جلس هو أيضاً، على الكرسي الآخر.

- «فلنشاهد النار!» قال ليّ.

لا أعرف كم من الوقت ظللنا نجلس أمام المدفأة، متجاورين، فالنار يمكن النظرِ إليها فترة تمتد ساعات وساعات، دون أن نشعر بالتعب أبداً. إنها لا تتوقف أبداً. أفرع الحطب الصغيرة تطقطق، وتتكسر، ويبدو للحظة هيكلها الصغير المتوهج، بينما النار تصعد لأعلى، وتبدأ في التهام المناطق الداخلية في قطع الخشب الأكبر حجماً، مصدرة ذلك الحفيف الذي يبدو مثل زفير، وتغير لونها باستمرار، فتصبح زرقاء، وخضراء، وتتحد في دائرة حلزونية أكبر مع النيران الأخرى الصغيرة التي ترتفع هناٍ وهناك من الكومة، منطلقة من الأسفل، وهي تصدرِ حسيساً، فتنطلق تلك الشرارات العديدة، التي تندفع بعيداً كأنها ناتجة عن انفجار.

كنا نعود برأسينا للخلف من حين لآخر؛ كيٍ لا تصل الشرارات لوجهينا. كانت النار الآن تصدر صوتاً قوياً، بعد أن أحاطت بالكومة كلها، فبدا كأنها تريد الإجهاز عليها. كانت ألسنة اللهب تتصاعد داخل منفذ المدخنة. وفي الوقت نفسه، كانت في الخارج تنتصب في الأعلى المدخنة الوحيدة التي كانت تنفث دخاناً، على قمة التل المهجور، في وسط الغابة.

كنا ننهض دون أن نقول شيئا عندما كانت إحدى القطع الخشبية تتداعى، وتخمد النار، فكنا نمسك الحطب من الموضع الذي لم تمسه النار بعد، بأصابعنا، أو بملاقط النار؛ كي نعيد تكوين الكومة، ونخلق فراغات يمكن للنار أن تجدٍ فيها الأكسجين؛ كي تتغذى عليه مجددا. كنا نضيف قطعاً أخرى من الحطب، كلما احترقت القطع الاولى، وكان اللهب بحاجة لمزيد من الحطب؛ حتى يتأجج. كانت للطفل طريقته، وكانت لي أنا أيضاً طريقتي، فلكل شخص طريقة مختلفة في التحدث مع النار. ثم كنا بعد ذلك نعود لنجلس على مقعدينا، ونشاهد في صمت ذلك الحريق الصغير.

كان يسري في الجو دفء جميل. كانت قطرات الماء تسيل

على الزجاج؛ بسبب تكثف البخار عليه. كنت ألمح بجواري رأس الطفل المدفوع قليلاً للأمام، ووجهه المنير؛ إثر سقوط الضوء المنبعث من المدفأة عليه، وهو مستغرق في التحديق في اللهب بعيونه الكبيرة.

ظللنا نجلس هكذا طويلا، ونحن متجاورين، دون أن نتحدث، بينما كان الدفء يستمر في سريانه في تلك الحجرة الصغيرة. كان الوقت يمر، وبدأ الظلام يحل. كان يبدو لي حتى أنني كنت من حين لآخر أغفو بضع ثوان أمام النار، التي كانت تستمر في حرق أجزاء جديدة من الحطب، ومن العالم، فوق الجمرات الكبيرة التي كانت تومض في الظلام.

- «لم تجهز ذلك المنزل الصغير؟» تذكرت أن أسأله مرة أخرى، فجأة، بعد أن تنبهت من إغفاءة قصيرة، كنت خلالها مستمرا في رؤية كل شيء.

ظل صامتا، وهو يتأمل النار.

- «من أجل من ذلك المنزل الصغير الذي تقوم بإعداده؟» سألته مجدداً، والرعشة تسري في جسدي.

- «من أجلك أنت.» أجابني.

الفصل السابع والعشرون

حل الشتاء بالفعل. كان الثلج يغطي كل شيء على امتداد البصر بلونه الأبيض: الجبال، والتلال، والدروب، وأسيجة شجر العليق، والأطلال ذات الأسقف الإردوازية المتهدمة، والأشجار الكبيرة الثابتة، التي ينزل منها غبار أبيض، عندما أمر من تحتها، وأنا أسير بالحذاء المطاطي طويل الرقبة. حتى السماء كانت بيضاء. ولم تعد تتردد أصوات الحيوانات في الأرض، ولا في الجو. يسود صمت مطبق.

في هذا الصباح، لا أعرف لم، وضعت سلاسل الثلج(٥) على إطارات السيارة، ووصلت إلى بلدة ذلك الرجل، الذي يعيشٍ مع الحيوانات، قبل أن يتجمد الثلج، الذي كان لا يزال طرياً، ويتسبب في انزلاق الإطارات.

كان الجليد يصدر حفيفاً، فكان ينبعث منه صوت تلك الكارثة الناعمة، بينما كان العديد من البلورات، المختلفة عن بعضها البعض، تهلك، وتتماهى صورتها، وتتلاصق تحت ضغط إطارات السيارة.

(٥) سلاسل الثلج : سلسلة الثلج هي جنزير أو سلسلة حديدية سميكة خاصة يتم تركيبها على إطارات المركبة، وذلك للحصول على تماسك أفضل للعجلات أثناء السير على الجليد.

وصلت حتى تلك البلدة، وأنا أتقدم ببطء، عبر المنعطفات البيضاء، وقد أنزلت نوافذ السيارة، وسط السكون المطبق، والعالم المغطى ببياض الثلج. كان الجليدِ الذي تساقط منذ قليل، ولم يكن قد تجمد بعد، يولد احتكاكاً تحت الإطارات. كنت أرى أمامي فقط مساحات بيضاء شاسعة، وكانت تبدو بصعوبة الحدود التي تنتهي عندها الطرق، وتبدأ بقية العالم.

لم يكن يوجد أحد في تلك الساحة الصغيرة بجوار الكنيسة. كل المنازل مغلقة. كانت فقط بعض المداخن المتناثرة هنا وهناك ينبعث منها دخان.

أوقفت السيارة. وصلت إلى ذلك المكان سيراً على الأقدام. لكن لم يكن يوجد أحد حتى هناك. كانت كومة الروث بيضاء تماماً. نزلت عبر المنحدر الصغير، وأنا أرتدي في قدمي الحذاء المطاطي طويل الرقبة، وأحاول ألا أنزلق. دلفت إلى داخل الحظيرة التي كانت شاغرة. لم تكن البهائم موجودة، ولم تكن هناك تلك الشاشة على الطاولة الخشبية، ولم تكن هناك حتى الطاولة الخشبية. لم تكن هناك العنزات، ولا الكلب، ولا التيس. لم يعد هناك أي شيء.

"ربما ذهب يمضي الشتاء في مكان ما آخر" قلت لنفسي. "ربما ذهب ليبحث عن مناطق أخرى للرعي. أو لعلهم صعدوا جميعاً على متن إحدى تلك المركبات الفضائية، التي لها شكل البيضة. ربما هم في رحلة إلى مكانٍ ما مجهول..."

كانت المقبرة الصغيرة هي أيضاً بيضاء. نزلت منذ قليل، وأخذت أسير ببطء عبر الطريق الصغير. كنت أرى بالكاد ضوء الشموع، وهوٍ ينسل من تحت غطاء الجليد.

توقف الجليد قليلاً عن التساقط، ثم عاود الهطول من جديد. أجلس الآن على الكرسي الحديديِ. أتأمل ذلك الضوء الخافت على التل الآخر. أراه هو أيضاً بصعوبة. ينسل من مكان منطمس في الغابة، عبر الفضاء، الذي تتخلله دوامات الجليد

البيضاء.

"ثم في يوم ما سيضيئ أيضاً هناك بالقرب منه نور خافت آخر..." انتبهت فجأة للفكرة. "سيكون هناك ضوءان خافتان بدلاً من ضوء واحد. وسأشاهدهما أنا من هنا وسأقول لنفسي: "ها قد انتهت هذه الوحدة الرهيبة. انتهى التكفير عن الذنب!"

الفصل الثامن والعشرون

وجدت هذا الصباح فراشة ميتة، بين ناموسية النافذة، ومصراعها الزجاجي، حيث من الواضح أنها ظلت عالقة هناك دون أن أدرك أنا ذلك.

لا أعرف إن كانت بالفعل فراشة، فقد كانت تبدو واحدة من تلك الحشرات الطائرة، التي تطير أحياناً في المنازل، بعد أن تظهر من مكان مجهول، مثل فراشات العثة، التي تتشكل في الخفاء داخل الأدراج، من تلك اليرقات الصغيرة، التي تخرج من البيض في الصوف، وتنمو بامتصاصها لخيوطه، ثم بعد ذلك، في وقت معين، تخرج من العتمة، وتبدأ حياتها الجديدة الطائرة. إنها حشراتٍ صغيرة، وغير مرئية، ومزعجة، وترتطم برأسك أحياناً في الظلام، بينما تكون نائماً، ولكن في حياتها القصيرة تمر عبر عمليات تحول لا يمكن تخيلها.

ها هي تبدو مثل واحدة من تلك الفراشات، لكنها أكبر بكثير.

فتحت النافذة. أمسكت بها من إحدى أجنحتها الصغيرة الهزيلة، وذهبت لألقي بها في المرحاض. جذبت طرادةٍ الماء، لكنها لم تختف. انتظرت أن تمتلأ طرادة الماء مجدداً، وجذبتها مرة أخرى. لكن من الواضح أنها كانت شديدة

الخفة. كانت مستمرة في الطيران هناك في دوامة المياه داخل المرحاض.

مضى الأمر هكذا يوماً كاملاً. كنت أعود من حين لآخر؛ كي أرى إن كانت الفراشة لا تزال موجودة، أم أنها اختفت أخيراً. لكنها كانت دوماً هناك، على سطح المياه، شديدة الخفة، ولكن لا يمكن تدميرها، فلم ينفصل عنها ولا حتى جزء واحد من أجنحتها التي كانت تبدو واهنة. كنت أبول في المرحاض، فأصيبها بالبول المتدفق، من أعلى، لكنها لم تكن تتفتت. كنت أسحب الطرادة من جديد، فكانت الفراشة تعاود الدوران في دوامة المياه. وعندما كان الماء ينتهي من النزول في ماسورة الصرف، كنت أجد الفراشة لا تزال هناك، تعوم على سطح المياه، وأجنحتها الهزيلة مفتوحة: لم تمس، ولم تدمر.

في الخارج، كان الجليد مستمراً في التساقط. كان هناك سكون رهيب، واللون الأبيض يكسو كل شيء. أكاد لا أرى شيئاً مما تبقى من هذه البلدة الصغيرة، ومن الأطلال. الطرق مغلقة، تكاد تكون ممحية. ليس بالإمكان الخروج؛ لأنني لم أعد أستطيع تمييز أين تنتهي الدروب وأين تبدأ المنحدرات. كانت هناك طبقة كثيفة من الجليد تثقل أيضاً على سطح منزلي الصغير، وحتى الجدران تكاد تختفي تحتها، حيث تصل ندف الثلج وهي تدور كالدوامة، وسط ريح شديدة، وتلتصق بالحوائط، وتغطي أيضاً النباتات المتسلقة تماماً، والشجيرات الجافة، والأشجار شديدة الصغر، التي تنسل من الجدران، فتبرز من الفجوات، حيث تضرب بجذورها بين الكلس القليل المتفتت، أو مباشرةً حيث لا يوجد شيء. ليس من الواضح إن كان عالم النباتات هو الذي اخترق المنزل، أم على العكس، المنزل هو الذي امتد نحو الخارج.

كان التل الموجود في الجهة الأخرى هو أيضاً مغطى تماماً بالجليد. نظرت طويلاً، عندما حل الظلام؛ كي أرى إن

كان لا يزال يمكن تمييز ذلك الضوء الخافت لكنني لم أكن أرى شيئاً، لا شيء على الإطلاق، فقط بريق الجليد الخفيف، الذي تبرزه القبة السماوية، التي تغطي كل شيء في العتمة الكثيفة.

قبل أن آوي إلى فراشي، ذهبت لأنظر مرة أخيرة داخل المرحاض. كانت الفراشة لا تزال هناك. شددت طرادة المياه مجدداً. دارت قليلاً مع دوامة المياه، ثم طفت من جديد على السطح، وأجنحتها مفرودة على وسعها.

انحنيت، ومددت يدي داخل المرحاض، وجذبتها خارج المياه. بيدي الأخرى قطعت بعضاً من الورق الصحي، ولففته مرتين أو ثلاثٍ مرات حول جسد الفراشة الصغير المتيبس؛ كي أكسبه وزنا.

جذبت طرادة الماء للمرة الأخيرة.

حينئذ فقط، وهي ملتفة في كفنها، غطست الفراشة أخيراً. وابتلعها الماء.

الفصل التاسع والعشرون

لا أسمع صوتاً. لا أرى شيئاً. الجبال، والسماء، والأدغال، والمنحدرات، والـدروب، والطرق الحجرية الصغيرة، والأطـلال، والبيوت القليلة المهجورة، والسلك الذي يمتد من مكان ما، ويعبر البلدة الصغيرة، ويستمر لسبب ما في توصيل النور لمنزلي، وحاجز الشرفة، والكرسي الحديدي ذو الأرجل التي تغوص في الأرض أمام الجرف الصخري الأبيض، والنباتات الكثيرة التي تبرز من الجدران، كلها ترزح تحت وطأة الجليد... تبرز أيضاً من جدران المنازل الأخرى، والأطلال، أشكال من الخضرة، أشجار، وأسيجة أفقية من شجيرات تضرب بجذورها بين الحجارة، وتمتص من قلبها القاسي غذاءها، بينما تنمو النباتات نحو الخارج متدلية في الفراغ، فتدفع بأنسجتها، وألیافها، وعصاراتها مباشرةً داخل الفضاء. توجد أطلال مغطاة تماماً بتلك النباتات، فلا يبدو واضحاً إن كانت منازل، أم أدغالاً مائلة تندفع داخل الفراغ. طوتها النباتات المتسلقة تماماً تحت غطائها، الذي تنبعث منه جذوع صغيرة منحنية تحاول أن تقاوم، وأن تتحرر من عناقها الرهيب.

عندما ينتهي الشتاء، تتغطى هذه الجدران القديمة، وهذه

الحجارة، بأوراق شجر جديدة قاسية، وبزهور. تطير حولها سحب من الحشرات، التي خرجت تواً من بيضها، فتعود لترتمي في تشققاتها العميقة، وتدخل مجدداً، وهي مقلوبة، في جروح التين، الذي ينمو على الجدران، وهو يلتوي نحو الأعلى للوصول للنور، وفي ثمار التفاح، والخوخ البري الصغيرة، المليئة بالثقوب، والشقوق. تجف ثمار الفاكهة بعد ذلك، وتتيبس، وتسقط، بعد أن تمكث قليلاً معلقة من الأفرع، التي تتعرى باستمرار. تسقط الأوراق أيضاً، فتغطي الأسطح المتهدمة، بينما الجذور تحت الحجارة الإردوازية المغطاة بالجليد، تلح في طلب قليل من العصارة من عالم الجماد ذلك المعلق في الفضاء.

تستمر في الموت، والميلاد مرة أخرى، والموت مجدداً، فكل شيء يدور داخل حلقة الألم الناشئ ذاتها. وتستمر خلاياها النباتية في المقاومة باستماتة، وفي التكاثر في صمت، وستستمر هكذا أيضاً عندما لن تعود الناس موجودة، عندما ستختفي من على وجه هذا الكوكب الصغير التائه بين المجرات، وستكون هناك فقط هذه المعاناة المتمثلة في الخلايا التي تقاوم، وتتكاثر من جديد، طالما لا يزال يصل إليها قليل من ضوء نجمنا الصغير.

ستستمر دوماً في شق، وكسر الجدران، التي ستضرب بجذورها الصغيرة في حجارتها، وستنبثق من الأرضيات، والأسطح، وستمر عبر فتحات النوافذ المحطمة، فتكسر الزجاج القليل، الذي لم يمس بعد، بضغطها الأخضر الناعم، الذي لا يمكن مقاومته، وستدفع بسويقاتها اللينة المتمايلة في مهمات استطلاعية بعيدة المدى في الفضاء؛ للبحث عن مرفأ للرسو عليه، وستهدم، وتحطم الأسقف، وستجتاح المداق، والدروب الصغيرة، والطرق، وستمتد للخارج برؤوسها المدببة الضئيلة، التي تطل لأول مرة على الفضاء. ستباعد

بين المكونات الداخلية للأشياء، التي ستقابلها في طريقها، وستنسل محدثة فيها فراغاً ذرياً ضئيلاً، وستجعل الفضاء الشاغر يدور كالدوامة بتلك البقايا من الجزيئيات المزودة بشحنة كهربائية، والتي تطوف في الفضاء الشاغر. ستكسر المنازل، والشوارع، والطرق السريعة الموجودة بعيداً عن هنا، في مكان ما من العالم، والمدن الكبيرة المهجورة المليئة بناطحات السحاب، والأبراج، وستهشم زجاج النوافذ، وأبواب المرائب المنزلقة، وستفجر في صمت الأنابيب، والبالوعات، بإلحاحها المزعج، وضغطها الصامت، وستحطم هياكل السيارات، ومضخات البنزين، والمراكز التجارية الكبيرة ذات الواجهات الزجاجية، على أطراف المدن الكبرى. وستلقي بأعمدتها الخضراء على ناطحات السحاب، وستتجاوز أسطحها، بأطرافها المعقوفة اللينة، وستتلمس طريقها بحثاً عن بنايات جديدة، ومرافئ أخرى داخل الفضاء. مدن جديد أعيد تشكيلها، ومناظر خضرة جديدة اندمجت حديثاً في الحضر، ستطل على مساحات المياه الشاسعة في البحار، والمحيطات، وستستمر في مد أطرافها المعقوفة للأمام؛ كي تنضم للغابات الغافية تحت مياهها الصامتة في الأعماق المعتمة، كي توقظها من نومها، وتغمر العالم.

قضيت النهار كله أقوم بالاستعدادات اللازمة. لكنني في البداية قمت بترتيب المنزل. مسحت الأرضيات، ورتّبت الفراش، وألقيت بالرماد المتبقي في المدفأة في القمامة. غسلت الصحون، ونظفت سطح الموقد، والفرن من الداخل، ومقابض الأبواب، وزجاج النوافذ القليلة. اغتسلت أنا أيضاً، وارتديت ملابس نظيفة.

قبل أن أصعد، دققت أغطية الأواني مطولاً؛ كي أبعد الحيوانات.

حل الظلام الآن. لكن السماء لا تزال بيضاء؛ بسبب الجليد الذي لا يزال يعصف فوق الأرض. شاهدتها منذ قليل من النافذة الصغيرة في غرفتي. كل شيء مظلم وأبيض.

لديَّ كل ما يلزم بجواري. لن أضع المنبه هذه الليلة.

يصعب قول ما أقوم به الآن...

كل شيء جاهز.

ها هو الليل قد حل. الليل قد حل.

الفصل الثلاثون

ماذا يحدث الآن؟

تتناهى إلى سمعي دقات.

لكنها بعيدة، بعيدة.

أسمعها منذ فترة طويلة، من حيث تأتي.

ولكن من أين تأتي؟ لم لا أستطيع أن أستيقظ؟

لقد مر وقت ما.

لا تزال تتناهى إلى سمعي تلك الدقات. شخصٍ ما يدق الآن على باب منزلي. ولكن من بعيد، من بعيد جداً.

من الذي يطرق باب منزلي بشدة هكذا؟

أشعر بالخوف، لكنني لا أستطيع أن أتحرك، لا أستطيع النهوض.

لم يصعب الاستيقاظ عليَّ هكذا؟

أستغرق في النوم مرةً أخرى، رغم أنني كنت بالفعل نائماً، وكنت أسمع صوت تلك الخبطات أثناء نومي.

دقات، ودقات. لا تزال مستمرة، تلك الطرقات المخيفة، التي تتناهى إلى هنا من بعيد، من بعيد جداً.

ما أشد خوفي!

الظلام يسود كل شيء. السواد يغمر كل شيء.

ورغم ذلك ما زالت تلك الدقات تتردد. تزداد شدة أكثر فأكثر. هناك شخص ما لا يكل ولا يمل من طرق بابي البعيد جداً.

أود أن أحاول الاستيقاظ، إن كنت نائماً؛ كي أنهض، وأذهب لأفتح الباب. لكنني لا أنجح في ذلك. أعاود النوم، وسماع تلك الدقات البعيدة في نومي.

يتناهى الآن إليَّ أيضاً صوت يصيح، ويصيح.

يصيح؛ كي أفتح له الباب.

أفتح عينيّ. ولكن ربما كانت بالفعل مفتوحة.

لا أعرف إن كنت لا أزال نائماً، أم أنني مستيقظ.

يبدو ليّ أنني أرفع رأسي من على الوسادة، وأنني أحاول النهوض من الفراش.

أنظر حولي، وأنا لا أزال نائماً، في ذهول.

أمد يديّ نحو الكمودينو. أشعل الضوء. لكنني لا أرى، لا أرى شيئاً.

أحاول أن أسحب نفسي لأعلى، أن أجلس.

أتحسس الفراش، والكرسيّ المجاور له، بينما لا تزال تتناهى من بعيد، من بعيد جداً، أصوات تلك الدقات، وتلك الصيحات.

شعرت تحت أصابعي بالسروال القصير المكور.

ارتديته بسرعة، وأنا أقف على ألواح الأرضية الخشبية شديدة البرودة، وأستند على الحائط بيدي؛ حتى لا أقع.

أرتدي أيضاً الجوارب، والحذاء، وأنا لا أزال نائماً، مذهولاً.

أخطو بعض الخطوات نحو السلم الخشبي. أشرع في النزول، في بطء شديد، خطوة تلو الأخرى؛ لأن ساقيّ صغيرتان، ودرجات السلم عالية، عالية جداً.

إنني في المطبخ.

أذهب نحو الباب، فأسير على الأرضية الممسوحة منذ قليل، بينما تستمر في الاقتراب تلك الصيحات، وتلك الدقات.

ألمح من حولي، رغم أنه يبدو ليّ أنني لا أرى شيئاً، الطاولة المنظمة جيداً، وسطح الموقد، والمقابض المصقولة، والمدفأة النظيفة.

أصل أخيراً إلى الباب.

أفتحه.

أفتح أيضاً المصاريع الخشبية، التي تهتز من الخبطات.

هناك رجل يقف أمامي.

يتوقف فجأة، عندما يراني.

أتوقف أنا أيضاً.

أنزل قلنسوة سترته الثقيلة، و أخذ ينفض بيده الجليد عن كتفيه.

- «لماذا استغرقت وقتاً طويلاً هكذا لتفتح الباب؟» سألني.

- «لم أكن أستطيع النهوض.»

ينظر إليَّ.

وأنا أيضاً أنظر إليه.

- «ماذا حدث؟» سألني مرة أخرى، بصوت خفيض، وهو يتنهد.

- «لقد قتلت نفسي.»

ظل ينظر إليَّ في صمت، وعيونه مفتوحة على وسعها.

- «تعال!» قال ليّ فجأة.

- «لكننا في قلب الليل! وهناك عاصفة ثلجية!»

- «تعال!»

- «لكن الدروب معتمة! لا يمكن الذهاب إلى أي مكان! لن نرى شيئاً!»

- «تعال!»

أعطيه يدي الصغيرة.
يأخذ يدي، بيده الكبيرة
- «إلى أين نذهب؟» سألته.
- «لا أعرف.»

الضوء الخافت

في مكان بعيد وناء عن العالم، وسط الأدغال، في بلدة قديمة مهجورة، وموحشة، يعيش رجل وحده في عزلة تامة. ولكن هناك لغز غامض يكدر عزلته: ففي كل ليلة، في الساعة ذاتها، ينطلق فجأة في العتمة ضوء خافت، في مكان ما على التلال، قبالة منزله الحجري.

تُرى ما هذا الضوء؟ أهو ضوء يشعله شخص ما يسكن في بلدة أخرى مهجورة؟ أم مصباح منسي، لا يزال متصلاً بشبكة الكهرباء؟ أم هو طبق طائر؟

ذات يوم، يقرر الرجل أن يذهب إلى المكان الذي ينبعث منه ذلك الضوء الخافت؛ حتى يجد إجابة لأسئلته المحيرة.

إنه السر الذي سنكتشفه باقترابنا رويداً رويداً من قلب هذه الرواية، التي تنساب في نعومة، ويسر، لكنها تغوص سابرة في أغوار عميقة، حتى تصل إلى النهاية غير المتوقعة. يقدم لنا أنتونيو موريسكو هنا تأملاً عميقاً، ومؤثراً للكون، ولمعنى الحياة، ويقيم حواراً مستمراً مع الكائنات التي تعج بها الغابات: الأشجار، والجذور الطائرة، والحباحب، وطيور السنونو. إنها رواية يلفها الغموض، ومفعمة بالتأملات عن الوحدة، والعزلة، وألم العيش، والعلاقة التي تربط بين البشر والحيوانات، وبين الأحياء والأموات.

ولد في مدينة مانتوفا، في شمال إيطاليا، في أكتوبر عام ١٩٤٧، ويعيش حالياً في ميلانو. يعد واحداً من أهم الكتاب الإيطاليين، وله العديد من الأعمال الروائية والمسرحية، ومنها: "رسائل إلى لا أحد" Lettere a nessuno (٢٠٠٨)، "أناشيد الفوضى" Canti del caos (٢٠٠٩)، "المحترقون" Gli incendiati (٢٠١٠)، "البدايات" Gli esordi (٢٠١١)، "جدار النور" La parete di luce (٢٠١١). تنتمي أعماله الأدبية إلى التيار التجريبي.